



مهرجان
الإسماعيلية
الدولي
الخامس

للأفلام التسجيلية والقصيرة

٢٠٠١

ميجيل ليتين

مغامرة ميجيل ليتين
السرية في تشيلي

تأليف: جابرييل جارتيا ماركيز

ترجمة: علي درويش

إصدارات المركز القومي للسينما

مغامرة ميغيل لينين السرية في شيلي

تأليف

جابريل جارسيا ماركيز

ترجمة

على درويش

مقدمة

«جدي من بيت ساحور» هذا مايقوله بطل هذا الريبورتاج، المخرج السينمائي التشيلي ميغل ليتين .
الجالية الفلسطينية في التشيلي، من أقدم جاليات بلاد الشام التي وطئت الأراضي الأمريكية اللاتينية، يعود تاريخ هجراتها إلى نهايات القرن الماضي، أوائل هذا القرن، انخرطت هذه الجالية في معترك الحياة اليومية في تشيلي، شأنها في ذلك شأن غيرها من الجاليات السورية واللبنانية في العديد من بلاد المهجر، كلها لعبت دوراً هاماً في مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والأدبية . . . في تلك البلدان، وفي معترك الفرز الطبقي وبحكم تباينات المصالح الاقتصادية انفرز المهاجرون وبحسب مصالح طبقاتهم، حيث برزت رموز شهيرة في الحركة الثورية في أمريكا اللاتينية والوسطى خاصة في نيكاراغوا والسلفادور، وبرزت رموز مثلث قوى الاحتكار ومصالح برجوازيات بلدانها، ومنهم من تقلدوا مفاتيح الحكم في تشيلي أيضاً فقد حدث فرز في الجالية الفلسطينية فأصحاب رؤوس الأموال والمسيطرون على تجارة النسيج، وقفوا الى جانب الانقلاب العسكري الذي قاده أوغوستو بينوشيت، وأطاح بحكومة الوحدة الشعبية برئاسة سالفادور الليندي، وفي المقابل، بطل هذه القصة مثال حيٌّ على سلالة المهاجرين من أنصار حكومة الوحدة الشعبية، وأنصار الديمقراطية في تشيلي .

في السابق عرف التحقيق الصحفي على أنه محاولة لدس الأنف فيها هو أكثر من الصحافة، ومع الزمن تحول هذا إلى نوع من الأدب القصصي، إن سمات الأدب الذي يتطلبه العصر الحديث، عصر التغيرات الاجتماعية والتكنولوجية الهائلة تتمثل في الأسلوب السريع الخلاق المكتنز بالمعلومات المكثفة، ومن الملاحظ أنه في الحقب الأخيرة من هذا القرن استحوذ الأسلوب الصحفي حيزا أكبر في لائحة الكتب المباعة.

هذه الوقائع يقدمها لنا غارسيا ماركيز، كواحد من أكثر الصحفيين قدرة في عصرنا، والذي لم يفقد استخدام أسلحته القديمة «رغمًا عن جائزة نوبل للآداب، حسب فكاهته الخاصة».

ملاحظة:

أثرت أن أبين بعض الاعلام والأماكن المذكورة في هذه القصة، في الهامش

تنويه للقارئ

في أوائل عام ١٩٨٥، قام المخرج السينمائي التشيلي ميغيل ليتين، المدرج اسمه في لائحة الخمسة آلاف منفي المحظور عليهم، حظراً باتاً العودة الى وطنهم، بزيارة التشيلي سرّاً، بعد أن غير ملامح وجهه، وطريقته في الملبس، والحديث، وبأوراق ثبوتية مزيفة، وبمساعدة وحماية المنظمات الديمقراطية السرية. وعلى مدى ستة أسابيع، قام بتصوير أكثر من سبعة آلاف متر من الأشرطة السينمائية تحكي حقيقة أوضاع وطنه، بعد اثني عشر عاماً من الدكتاتورية العسكرية. طاف ليتين في أرجاء الوطن - وحتى داخل قصر المونيدا* - وفي الوقت نفسه إلى جانبه وتحت قيادته كانت تعمل ثلاث فرق سينمائية أوروبية، واكتبهم ست فرق شبيبية من المقاومة في الداخل.

ثمرة ذلك كان فيلماً استغرق أربع ساعات للتلفزيون، وفيلماً آخر استغرق ساعتين للسينما، حيث يُعرضان حالياً في أرجاء المعمورة. عندما قص عليّ ميغيل ليتين في مدريد، قبل ستة أشهر ما قام به، وكيف تم له ذلك، ظننت أنه كان وراء هذا الفيلم فيلم آخر، لكنه أحجم عنه في نهاية المطاف.

★ المونيدا: قصر الرئاسة في تشيلي، أما بحد ذات الكلمة فتعني العملة.

قَبْلَ الخضوع لاستجواب منهك دام حوالي الأسبوع، حيث تم فيه تسجيل ثماني عشرة ساعة من الأشرطة، فيها تفاصيل المغامرة الانسانية وبكل تعقيداتها الحرفية والسياسية، والتي قمت بتنظيمها وتبويبها في عشرة فصول.

تمّ تغيير وتمويه العديد من المعالم والأسماء، وذلك لحماية الشخصيات المذكورة في هذه الرواية والتي تواصل حياتها في تشيلي.

فضلت الابقاء على الحديث بلسان الشخص الرئيسي، وكما رواها عليّ ليتين، ولذلك حافظت على طريقته الشخصية - وأحياناً كما حصلت بالضبط - بدون مواصفات درامية، أو تاريخية، أما أسلوب النص النهائي فهو من صناعي، حيث أن صوت الكاتب لا يتبدل وبالذات عندما تقتزل ستمائة صفحة في أقل من مائة وخمسين.

لكنني حاولت في العديد من المواقع أن أحافظ على طريقة حديث التشيليين، وكما تحدثوا أصلاً مع أخذي بعين الاعتبار أفكار الراوي، والتي لا تتفق دوماً مع أفكارني، من ناحية طريقة البحث وصفته المادية، فيمكن اعتباره ريبورتاجاً.

ليس ذلك فحسب، فمن حيث اعادتنا لتركيب المشاعر التي حدثت في المغامرة، والتي وبلا شك مؤثرة ومهيّجة للشعور، نوفي بغرض أكبر من الغرض الأساسي الذي قام به على أكمل وجه، وبدون شك بانجازه فيلمًا يسخر من التدابير الأمنية للحكم العسكري.

ليتين بحد ذاته قال «ليس هذا هو العمل الأكثر بطولية في حياتي ولكنه أكثرها استحقاقاً للذكر» عين الانصاف، وهنا تكمن أهميته.

الفصل الأول

«مغامرة»
ميجيل ليتين السرية
فى شيلى»

كانت رحلة لاديكو رقم ١١٥، القادمة من أسونثيون - البرغواي، على وشك الهبوط بعد ربع ساعة من التأخير، في مطار سانتياغو- تشيلي، على اليسار وعلى ارتفاع سبعة آلاف متر، يظهر الاكونكاغوا* تحت ضوء القمر وكأنه مرتفع فولاذي شاهق ممتد في الماء .

جنحت الطائرة يسارا فأثارت الرهبة، ثم عدلت مسارها وقد ند عنها صرير وأنين معدني كثيب، وارتطمت بالأرض قبيل موعدها وقفرت كالكنغر ثلاث قفزات أنا ميغيل ليتين، ابن هرنان وكريستينا، مخرج سينمائي، أحد الخمسة آلاف منفي تشيلي، المحظور عليهم حظرا باتا العودة، من جديد أنا في وطني بعد اثني عشر عاما في المنفى، لكنني مازلت منفيا في داخل نفسي: متتحلا شخصية أخرى، مختلفة الوجه والمظهر، حتى أن أُمي . ماكانت قد عرفتني عندما التقيتها بعد أيام قليلة. **

اللقاءات، وتقدير الأوضاع والموقف، وتهيئة اللقاءات، والسهر على كل مايتعلق بتأمين سلامتنا، فيما اذا ضبطتني الشرطة، أو اختفيت عن الأنظار أو لم أقم بالاتصال المحدد كما اتفق خلال الأربع والعشرين ساعة . عندها عليها أن تعلن للعالم انني موجود في تشيلي، حتى تتحرك الأوساط الدولية .

رغبا عن أن أوراقنا الثبوتية لم تكن تشير الى أية علاقة تربطنا ببعض، فقد تنقلنا سوية من مدريد وعبر مطارات في العالم، كما لو كنا زوجين مقترنين تربطنا الأواصر الزوجية في آخر ساعة ونصف من هذه الرحلة، قررنا أن يجلس كل منا بمفرده، كما لو كان لايعرف أحدا

* الاكونكاغوا: اسم هندي احمر قديم

** من العلام المميّزة لكتابة ماركيز، استخدام الماضي في المستقبل.

الأخر، وأن تتبعني لاحقا في عبور مركز الهجرة والجوازات، كي تستنفر
جماعتها فيما لو حصل لي مكروه، وإذا سارت الامور على أكمل وجه،
نعود لتنضم كزوجين اعتيادين عند خروجنا من المطار.

كانت مهمتنا سهلة على الورق، ولكن يكتنفها العديد من
المخاطر عند التطبيق: الهدف تصوير فيلم وثائقي سري حول حقيقة
الأوضاع في تشيلي بعد اثني عشر عاما من الدكتاتورية العسكرية.

الفكرة كانت حلما يدر في رأسي منذ زمن بعيد، لأن صورة
الوطن بهتت في غيوم الذكريات، لا توجد أمام السينمائي سوى طريقة
واحدة موثوقة لاستعادة صورة الوطن المفقود، أن يعود ويقوم بتصويره
من الداخل. اختنق حلمي هذا عندما بدأت الحكومة التشيلية بنشر
قوائم المنفيين الذين يحق لهم العودة، بحثت عن اسمي، فلم أجده في
أي منها، فقدت الأمل نهائيا عندما نشرت قوائم الخمسة آلاف منفي
والذين لا يحق لهم العودة إطلاقا، كان اسمي مدرجا بينهم.

في نهاية المطاف تأكد المشروع، لمحض الصدفة تقريبا، ودون
توقعي وقد مضى عامان فقدت فيهما الأمل بتحقيقه.

كان ذلك في خريف ١٩٨٤، في مدينة سان سيلاسيان
الباسكية، حيث أقمت هناك مدة ستة أشهر مع (ايلي) وأبنائنا الثلاثة،
لعمل فيلم، مثله مثل الكثير من الأفلام التي لا ترى الضوء في تاريخ
السينما، حيث يعدل عنها المنتج قبل أسبوع من بدء العرض، عندها
سدت الأبواب في وجهي. بينما كنت أتناول العشاء مع أصدقاء في
مطعم شعبي، أثناء مهرجان السينما، عدت للحديث عن حلمي
القديم، دار النقاش حوله بجدية على الطاولة، ليس من حيث أبعاده
السياسية فحسب، وإنما أيضا للسخرية من طغمة بينوشيت.

لم يدر في خلد أحد أنه أكثر من حلم في المنفى، بيد أنه وبينما كنا

نقل أدرجنا الى البيت فجرا في شوارع المدينة العجوز التي كانت تغط في نومها، أمسك المنتج الايطالي لوثيانو بالدوسي بكتفي، والذي بالكاد نبس ببنت شفة على الطاولة وتنحى بي جانبا عن المجموعة، كما لو كان ذلك عرضيا، وقال لي:

- ينتظرك الرجل الذي أنت بحاجة اليه في باريس. عين ماكنت أحتاج اليه، فالرجل ذو منصب كبير في المقاومة الداخلية في تشيلي، ومشروعه كان يتميز عن مشروعي في بعض التفاصيل الشكلية فقط. تبادلنا الحديث في أنحاء منطقة كوبول مدة أربع ساعات، شاركنا لوثيانو بالدوسي بحماس، كان ذلك كافيا في شهد المنفى ليرى حلمي النور حتى في التفاصيل الدقيقة.

تكمّن الخطوة الاولى في إرسال ثلاث فرق أساسية للتصوير في تشيلي: ايطالية، وفرنسية والثالثة على أن تكون من أي بلد أوروبي ولكن يشترط ان يكون ضمنهم هولنديون، وأن يدخلوا بصورة شرعية، ويتصاريح رسمية، وتحت رعاية سفاراتهم العادية، ويفضل ان تقود الفريق الايطالي صحافية، وذلك للتمويه، حيث سترتب على الفريق تصوير فيلم وثائقي حول الجالية الايطالية المهاجرة في تشيلي، وأن يعطي حيزاً هاماً وخاصاً لعمل خواكينو تويسكا المعماري الذي صمم قصر المونيدا.

يترتب على الفريق الفرنسي أن يتوجه لتصوير فيلم وثائقي عن البيئة الجغرافية التشيلية. أما الفريق الثالث فإنه سيقوم بدراسة حول آخر الهزات الأرضية. يجب ان لا تكون احدى هذه الفرق على بيئة بالفريقين الآخرين، ولا حقيقة مايدور، ولا حتى من يقودهم في العمل، سوى مدير كل فريق، والذي عليه أن يكون محترفا وعلى بيئة بما يجري في وسطه، وبالذات فطن لما هو سياسي ويعي مخاطره.

كان هذا اسهل جزء من المهمة، حيث لم يكلفني تأمين ذلك سوى رحلة سريعة الى موطن كل فريق، في خاتمة المطاف جهزت ثلاث فرق مع عقودها، وتوجهوا الى تشيلي، بانتظار تعليماتي ليلة وصولي.

«مأساة تقمص الشخصية»

في الواقع تقمص شخصية أخرى أصعب فصل بالنسبة لي، حيث أن تغيير الشخصية نضال يومي يتمرد فيه الانسان أحيانا ضد مواصفات الشخصية الأخرى ويتشبث بشخصيته الاصلية. لم تكن مشكلتي الكبرى تعلم ذلك، كيف أتصرف وأفكر، انما كانت في مقاومتي العفوية للتغيرات الفيزيولوجية شأنها في ذلك شأن التغيرات السلوكية.

علي أن أضع جانبا الشخص الذي كنت دوما، وأن أتقمص آخر مختلفا جدا لاثير ريبة الشرطة القمعية التي أرغمتني على هجران وطني ونكران أصدقائي. استطاع مختصان بعلم النفس، والماكياج السينمائي تحت قيادة خبير في العمليات الخاصة السرية، أتى خصيصا من داخل التشيلي، بعد نضال مستمر، أن يقلبوا شخصيتي الاصلية رأسا على عقب. وتم لهم ذلك باعجوبة وفي أقل من ثلاثة أسابيع.

أولا اللحية، حلاقتها ليست بالمسألة الهينة، انه الخروج من شخصيتي التي ألفتها، تركتها لتنمو منذ مرحلة مبكرة من الشباب، وذلك عندما قمت بعمل فيلمي الاول ثم حلقتها مرات عدة، لم أصور فيلما على الاطلاق الا وكنت ملتحيا.

إنها مرتبطة بشخصيتي كمخرج، حتى أعلامي أطلقوها، .. بدون شك أعشقها، وتزداد ثقتي وقدراتي بها، حلقتها منذ أعوام عدة في المكسيك، ولم أستطع أن أضغ وجهي في عجا أصدقائي، ولا عائلتي، ولا حتى نفسي، الجميع كان لديه انطباع بأنه مع فضولي غريب، صممت الا اطلقها مرة أخرى، وددت أن أرى نفسي أكثر شبابا وفتوة، انتشلتني من أوهامي ابنتي الصغرى كاتالينا حيث قالت:

تبدو أكثر شبابا بدون لحية، ولكنك أكثر قبحا
كي أعود الى تشيلي علي أن أحلقها، المشكلة ليست في الرغبة
وموس الخلاقة وانما في الدرب الطويل والعميق لنزع الشخصية .
أخذوا يجزونها رويدا رويدا، وأنا أرقب التبدلات في كل مرحلة،
وكيف بات يتغير مظهري قصات مختلفة الى أن وصلنا للملامسة البشرية،
مرت أيام قبل أن أمتلك الشجاعة وأحرق في المرأة.

بعدها أتى دور شعر الرأس، شعري أسود غزير، ورثته عن أم
يونانية وأب فلسطيني، أورثني صلعة مبكرة. ابتدأوا بصبغه باللون
الكستنائي الفاتح ثم سرحوه بأشكال مختلفة، ولم يغير ذلك من مظهره
الطبيعي في شيء.

في البداية فكروا في اخفاء الصلع، ولكنهم عدلوا وسرحوه الى
الخلف وأزالوا ماتبقى من الشعر في المقدمة بحيث أبرزوا الصلع أكثر بما
هو في الحقيقة.

قد يكون كذبا، ولكن هناك لمسات مذهلة تغير في تركيب الوجه،
فوجهي الدائري مثل البدر، يبدو الآن وكأنه أقل عما هو في الحقيقة
بكيلو غرام، استطال وجهي بعد نزع الحواجب الخارجية، بشكل
مدهش مما أعطاني مظهرا شرقيا مرتبطا بأصولي أكثر مما أورثني اياه مسقط
رأسي.

آخر خطوة كانت استعمال عدسات طبية، وسببت لي هذه الما
شديدا في رأسي خلال الأيام الأولى، لم تغير العدسات فقط من شكل
العيون وانما أيضاً من طريقة تعبير النظرات.

تغير شكل الجسد كان أسهل من ذلك بكثير، لكنه استغرق مني
جهدا عقليا كبيرا تغيير الوجه، في الحقيقة موضوع يتعلق بالماكياج، أما
ما يخص الجسد فيتطلب تهيئة نفسية خاصة، وتركيزا عاليا، حيث تتجلى
فيه كيفية تمثلي العميق لتغيير طرازي.

بدلا من سراويلات* الكابوي التي ارتديها دوما، والسترات،
توجب علي ان أعتاد على ارتداء ملابس من الصوف الانكليزي ذي
الماركات الاوروبية الشهيرة والقمصان المفصلة حسب القياس، وأحذية
من جلد الوعول، وربطات عنق ايطالية مطرزة بالورود.

بدلا من لهجتي التشيلية الزيفية السريعة الهادرة، علي تعلم
طريقة حديث اوروغوائي ثري، فهي الجنسية الاكثر تلاؤما مع هويتي
الجديدة، علي أن أضحك بطريقة تختلف عن طريقي، أن أسير ببطء،
استخدم الأيدي أثناء الحوار لتساهم في الاقناع بشكل اكبر.

في نهاية المطاف علي ان أدع جانبا كوفي مخرجنا سينمائيا، فقيرا
متمردا، عاثر الخطأ، كما كنته دوما، وأتقمص ما أمقته في هذا العالم:
برجوازي مرفه أو كما نقول نحن التشيليين: مومياء.

* سراويل: لفظ مفرد جمعه: سراويلات.

إذا ضحكت وقعت

اثناء تقمصي للشخصية الاخرى اخذت اعتاد الحياة مع ايلينا في مسكن يقع في الجادة السادسة عشرة في باريس، خضعت وللوهلة الاولى لجو كان علي ان اتمثل فيه شخصي الآخر، والى ريجيم لشحاذ ينقص وزنه عشرة كيلو غرامات، عن السبعة والثمانين كيلو غراما التي ازنها.

لم يكن بيتي، شتان ماينهما على ان اذكره كبيتتي، أن ادلفه في ذكرياتي، لتجنب اي تناقضات في المستقبل.

كانت اكثر تجارب حياتي غرابة، حيث وللوهلة الاولى تبين لي ان ايلينا فتاة لطيفة وجدية، وحتى في الحياة الخاصة، لكنني بالكاد كنت لاتمکن من الحياة معها، اختارها الاختصاصيون نظرا لمواصفاتها الحرفية والسياسية، وتوجب عليها ان تخضعني للسير في ممر فولاذي دون ان تترك لي هامشا تخلق فيه احلامي.

ترفض شخصيتي الحرة الحاملة الرضوخ لهذا، لاحقا وقد سار كل شيء على اكمل وجه، تيقظت على انني لم اكن محقا معها، لانني كنت احيانا اشخصها وبشكل عفوي على أنها من عالمي، الذي يرفض التقمص، وانا على بينه باننا في وضع مصيري نصيينا فيه اما الحياة او الممات.

الآن تستيقظ في الذاكرة تلك التجربة الغريبة، اتساءل بعد هذا كله، لم نكن زوجين في الحقيقة : وبالكاد يحتمل بعضنا الآخر تحت سقف واحد.

لم تكن لدى ايلينا مشكلة الهوية، انها تشيلية، رغما عن انها لم تعش بشكل دائم في تشيلي منذ خمسة عشر عاما، ولم تبعد أو تستدعى لمراجعة أي جهاز بوليبي في العالم، لهذا فمؤهلاتها كانت ملائمة، قامت بمهام عدة في العديد من البلدان، استقبلت بترحاب مهمتها الجديدة، حيث سيتم من خلالها مهمة تصوير فيلم سري .

المشكلة الصعبة كانت مشكلتي، فالهوية الانسب لي، ولاسباب تقنية، كانت تتمثل في ان اجيد تقمص شخصية تبعد كل البعد عن شخصيتي الحقيقية، وان اختلق ماضيا آخر في بلد لا أعرفه .

قبل بدء السفر تعلمت ان ادير رأسي في الحال اذا ماناداني احدهم باسمي الزائف

وكنت قادرا على الاجابة عن الاسئلة الاكثر غرابة حول مدينة مونتيفيديو، حول ارقام الباصات التي تقلني الى حيث منزلي وحتى عن حياة زملائي في الدراسة قبل خمسة وعشرين عاما اقيم في الليسيورقم ١١ «في الجادة الايطالية وعلى بعد مفترقي طرق من صيدلية ومفترق وعن سوبر ماركت انشء حديثا .

اهم مايجب تجنبه هو الضحك، لان ضحكتي تميز شخصيتي، وتظهرني للملأ رغما من التكر حذرني المسؤول عن تدريبي كثيرا من الكارثة التي ستحدث اذا ماضحكت .

- «اذا ضحكك فسوف تقع»

وأني لوجه كالطوبة ان يضحك، وهذا ليس بغريب على رجل اعمال دولي كبير اشبه بالقرش المفترس .

ازدادت المخاوف والشكوك من عدم القدرة على تنفيذ المشروع وفرص نجاحه، نظرا للتصريحات المعلنة حيث ان النظام جرح من فشله الشنيع في المغامرة الاقتصادية لمدرسة شيكاغو عكس ذلك نفسه ودفع صفوف المعارضة ولاول مرة لتتوحد في جبهة عريضة .

في ايار ١٩٨٣ انطلقت اوائل المظاهرات في الشوارع، وتكررت طوال العام، وتميزت بمناوشات قام بها الشبيبة وبالاخص الاناث، التي قمعتها السلطة بصورة دموية دعت قوى المعارضة، الشرعية منها وغير الشرعية، والتي ضمت بينها ولاول مرة قطاعات البرجوازية الاكثر تقدمية، الى القيام بالاضراب الوطني في يوم واحد، لتعبر وبصلابة عن المصالح الاجتماعية المناوئة للنظام والداعية لاسقاطه، والذي اثار حفيظة الدكتاتورية .

فقد بينوشيت اعصابه واطلق صرخة مدوية تردد صداها في العالم كترنيمة اوبرا: اذا استمر هذا، فسوف نقوم بـ ١١ سبتمبر جديد .

كانت ظروفاً مؤاتية حقاً، لعمل فيلم كالذي نصبوا إليه، يسلط الاضواء على حقيقة مجريات الاوضاع في الداخل، وفي نفس الوقت الذي تشدد فيه قوى الامن من قبضتها وهي اكثر ضراوة وبطشا، وبمجال العمل امامنا سيكون محدودا نظرا لقرار منع التجول .

قدرت المقاومة الداخلية الموقف، وحشنا على المضي قدماً في المشروع، كما يروق لي: ان نرفع الاشرعة في بحر ملائم ورياح مؤاتية وفي الزمن المناسب

«ذنب حمار طويل لبينوشيت»

كانت اول تجربة قاسية، يوم الرحيل في مطار مدريد، فقد انقضى شهر لم اشاهد خلاله ايلي وأبنائي الثلاثة، ولم تكن لدي اخبار مباشرة عنهم، ماشغل اهتمام المسؤولين عن امني انذاك، كانت فكرة سفري دون احاطة عائلتي علما بذلك لتجنب عواقب الوداع، نوقش الامر في بداية المشروع، واستحسن الجميع ذلك كي لا يثار الاضطراب، لكن سرعان ماتبهننا الى ان ذلك خال من أي معنى، بل وعلى العكس، فمن الافضل ان تكون ايلي على بينة لتتوكل بتأمين الحماية المؤخرة. وهي الشخص الانسب لاستقبال الافلام التي سأقوم بإرسالها على دفعات من داخل تشيلي، حيث تقوم بالتنقل بين مدريد وباريس، وبين باريس وروما وحتى الى بوينوس ايريس، واذا ما استدعى الامر ان تؤمن الارصده الاحتياطية لذلك، ومن ناحية اخرى فان ابنتي كاتالينا، لاحظت في غرفتي من خلال التجهيزات الابتدائية. ملابس من طراز جديد تتناقض كلياً مع طريقي في الملابس، وحتى مع نفسي، ساورها الظن وحب الاستطلاع، فما كان سوى ان اجتمعت بهم، ووضعتهم على بينه من خططي، استقبلوا ذلك بكل ثقة واستحسان، وكأننا فجأة وجدنا انفسنا نعيش في أحد تلك الافلام التي

اعتدنا مشاهدتها معاً للتسلية .

عندما شاهدوني في المطار متنكراً في زي رجل دين اورغوائي ،
والذي بالكاد يمت الي بصلة ، انتابتنا نفس الاحاسيس كلنا رأينا في هذا
الفيلم عمق مأساة الواقع واهميته من حيث خطورته ، والذي سيعكس
بدوره عواقبه علينا جميعا . قالوا لي :

- المهم ان تعلق ذنب حمار طويلا جدا للينوشيت
كانوا يقصدون لعبة الطفولة ، والتي فيها يضع طفل وعيونه
مغمضة ذيلا في المكان المخصص للحمار من الكرتون .
قلت لهم : - اعدكم - قست طول الفيلم الذي سأصوره .
وتابعت : سيكون ذيلا من سبعة آلاف متر .

بعد اسبوع ، هبطت مع ايلينا في سانتياغودي تشيلي ، ولاسباب
تكنيكية كان على الرحلة ان تحج وبدون جهة محددة الى سبع مدن
اوروبية ، لتؤهني في التحكم بشخصيتي الجديدة والمستندة الى جواز
سفر فوق الشبهات .

في الحقيقة كان جواز سفري الاورغوائي جوازا رسميا الاسم وكل
التفاصيل حول حامله ، قدمه لنا حامله كمساعدة سياسية ، وهو يعي
بانه سيستغل وسيستخدم لدخول تشيلي . ماقمنا به فقط ، كان استبدال
صورته بصورتي ، والتي التقطت لي بعد تقمصي . نظمت امتعتي
وبحسب اسم حامله ، نقشت احرف اسمه على القمصان والحقيبة
الدبلوماسية اليدوية ، وبطاقات الزيارة ، كذلك على دفتر ملاحظاتي .

بعد ساعات من التمرين ، أجدت رسم توقيعه دون ان اركز
ذهني ، ومالم نستطع تأمينه وذلك لضيق الوقت كانت بطاقات سحب
الارصدة البنكية ، نقطة ضعف خطرة في مشروعنا ، فكيف يمكن
الاقتناع بان الرجل الذي انتحلت هويته اشترى اثناء تجواله تذاكر سفر

عديدة، دوما يدفع نقداً وبالدولار.

كثيرة هي المنغصات التي نجبرنا في الحياة اليومية على الطلاق خلال يومين، لكننا تعلمنا ان نتصرف كزوجين يتواصلان في اسوأ الظروف التي تعترض الحياة والالفة، كلانا على بينه من تصرفات الآخر، الزائفة، وماضيه الزائف، رغباته البرجوازية الزائفة، عندما ندقق بعمق نكتشف بأننا لم نقترف خطأ فظيعا، حكايتنا كانت قد حبكت بدقة.

نمتلك شركة اعلانات مقرها في باريس، ونحن ذاهبان برفقة فريق سينمائي لعمل دعائي عن عطر جديد سيدرج الى الاسواق الاوروبية في الخريف القادم وقع اختيارنا على تشيلي لانها من البلدان النادرة التي نلبي غايتنا، يمكننا ان نجد فيها مناخ وطبيعة كل فصول السنة، من الشواطىء الملتهبة الى مناطق الثلوج الدائمة. بدت ايلينا رشيقة، تحسد بألبستها الاوروبية الثمينة، بدت كما لو انها ليست تلك التي قدموها لي في باريس، بشعرها المسبل، وبتنورتها الاسكتلندية وحذاءها المدرسي. كنت هادئا مطمئنا في جوانحي لتتكري بهيئة رجل اعمال، حتى انني نظرت هيئي في واجهة في مطار مدريد بدلة قائمة من قطعتين، ربة مية، وربطة عنق، اشتممت فيه رائحة قرش صناعي اضطربت منه امعائي.

«ياللفظاعة» جال في خلدي تلك اللحظة: «اذا لم أكن أنا نفسي أسأكون كهذا؟؟» من شخصيتي القديمة لم يبق سوى نسخة بالية من «الخطوات المفقودة» للكاتب العظيم اليجو كارينتر، والذي يرافقني دوما في حقيتي اليدوية في كل رحلاتي منذ خمسة عشر عاما أحمله كتعويذة تخفف من خوفي اللامحدود عند ركوب الطائرة، مع كل هذا كان على معاناة شباييك الجوازات في العديد من مطارات العالم، لانه يحكم

بأعصابي برفقة هذا الجواز.

في الرحلة سار كل شيء على أكمل وجه في مطار جنيف، ولكن لن أنسى ما حييت، مفتش الجوازات وهو يدقق الجواز باهتمام زائد، يتصفحه ورقة اثر أخرى، وفي الختام تفرس بنظراته وجهي وعاد ينظر الصورة، نظرت في عينيه، وقد حبست أنفاسي، رغما من أن تلك الصورة كانت فقط ما يخصني في ذلك الجواز.

«كانت علاجا لهما»*، منذ تلك اللحظة لم ينتابني شعور بالخوف أو الغثيان ولم تعد دقات قلبي تتسارع، حتى فتح باب الطائرة في مطار سانتياغو - تشيلي وسط صمت الاموات أخيرا وبعد اثني عشر عاما أحسست بهواء القمم الانديانية الثلجية العاصفة. على المبنى المواجه كانت هناك لوحة كبيرة زرقاء تشيلي تتقدم في نظام وسلام. نظرت. الساعة: لم يبق أمامنا سوى ساعة ويحظر التجول.

* مثل تشيلي.

الفصل الثانى

«أولى إحباطاتى :
وهج المدينة»

جال في خلدي عندما فتح مفتش الجوازات جواز سفري ، انه فيما لورفع بصره ونظر في عيني لاسترعاه التغير .
كان في المطار هناك ثلاثة ممرات للتفتيش ، يشرف عليها موظفون بلباس مدني ، قررت ان اتوجه الى اصغرهم سنا ، شعرت انه اسرعهم ، اصطففت ايلينا في طابور آخر ، وكأن لا شيء بيننا ، فاذا ما وقع احدنا في محنة ، سارع الآخر باطلاق النفير عند خروجه من المطار .

مر كل شيء بسلام ، واضح للعيان ان المفتشين في الهجرة كانوا يحثون الخطا في انجاز مهامهم قبل موعد حظر التجول ، شأنهم في ذلك شأن المسافرين ، بالكاد كانوا ينظرون الى الجوازات ، الذي تناول جواز سفري لم يدقق حتى الفيزا ، يعرف ان جيرانه الاوروغوايين بجاحه ليسوا بحاجة اليها ، ودمغ الختم على أول صفحة بيضاء صادفته ، دقق نظراته في عيوني باهتمام ، وهو يعيد الجواز الي ، جمدت جوانحي .

قلت بصوت واثق : شكرا

رد علي بابتسامة مشرقة : اهلا وسهلا .

تتقاعس الحقايب كثيرا عن الخروج في كل مطارات العالم ، كأنها لا تتحرك ، اما هنا فقد خرجت بسرعة ، فموظفي الجمارك يستعجلون العودة الى منازلهم قبل حظر التجول . تناولت حقيقتي ، ثم اخذت حقيبة ايلينا - كما اتفقنا - بان اخرج قبلها بالامتنع لكسب الوقت ، ورفعت كليتهما الى منضدة التفتيش الجمركي .

كان المفتش في عجلة من امره مثل كل المسافرين ، وبدلا من تفتيش الحقايب كان يحث المسافرين على الخروج بسرعة .

بينما كنت اضع الحقائق على الطاولة سألني : اتسافر لوحده؟؟
أجبت : نعم ، القى على الحقائق نظرة عابرة ، وحثني على
المرور .

من الداخل صرخت مفتشة : فتش هذا .
لم اشاهدها إلا في تلك اللحظة ، مفتشة من الطراز الكلاسيكي
شعراء مسترجلة متمنقة بحزامين متصلبين على الظهر ، عندها فقط
ادركت انني في محنة ، فكيف افسر حيازي لهذه الملابس النسائية .
تشوشت افكاري . . . فلماذا لم تقتنص احدا سواي من بين المسافرين
المستعجلين؟؟

إذا ، لعل القضية اكبر من مسألة حقائب .
بينما كان المفتش ينش بملاسي ، طلبت جوازي وتفحصته
باهتمام ، تذكرت قطعة الحلوى التي قدمت لي في الطائرة قبيل
اقلاعها ، القمتها في فمي حيث اني كنت على بينة من انهم سوف
ينهلون على بالاسئلة ، وبالكاد كانت لدي الثقة في قدراتي على اخفاء
هويتي التشيلية الحقيقية بلكنتي الاوروغوائية الركيكه . كان الرجل
سباقا في اسئلته :

- استمكث هنا اياما عدة . . . يا سيد ؟

- ما يكفيني .

حتى انا نفسي لم أع ما قلته وقطعة الحلوى في فمي ، لكنه لم يعر
ذلك اهتماماً طلب مني أن افتح الحقبة الاخرى ، وكانت مغلقة
بالمفتاح .

لم اعرف ماذا أفعل ، بحثت عن ايلينا باعين مضطربة ،
وبصعوبة رأيته في الطابور لا تدري بالكارثة التي حلت بجوارها ، اول
مرة انتبه فيها كم انا بحاجة اليها .

ليس لتلك اللحظة فقط ، وانما لكل فصول مغامرتنا .
حزمت امري في نفسي ، ورأيت ان اشير الى انها صاحبة
الحقيقية ، دون ان افكر بعواقب قراري العفوي ، عندها اعادت المفتشة
جواز سفري وامرت بتفتيش الحقائق التالية .

اعدت النظر الى ايلينا ، لكنها كانت قد غابت عن انظارني !!!
كانت لحظة سحرية ، ما استطعنا تفسيرها : لحظتها لم تكن ايلينا بادية
للعيان ، لاحقا قالت لي بانها رأته وهي في الطابور اجرجر حقيبتها ،
ودار في خلدنا ان تصرف في ذلك لم يكن متعقلا ، لكن ثورتها هدت وهي
تشاهدني اخرج من صالة الجمارك .

اجتزت المرشبه الخالي ، اتبع الجمال الذي تلقف امتعتي الى
العربة عند الخروج عندها عانيت أول صدماتي اثناء العودة ، اذ اني لم
اشاهد المظاهر العسكرية ولا حتى ادنى شكل لللبؤس . فانا لست في
مطار لوس ثيرتوس الضخم والمكفهر والذي بدأت منه رحلة المنفى منذ
اثني عشر عاما في ليلة ممطرة من ليالي تشرين الاول ، يرافقني شعور
الفرار الرهيب ، وانما انا في مطار بودا هويل الحديث ، الذي مررت منه
مرة واحدة فقط قبل الانقلاب العسكري . لكن ذلك الشعور وبجميع
الاحوال لم يكن متعلقا بانطباعاتي فحسب ، ففي تلك اللحظة بالذات
لم اتوقع ، ان لا اشاهد اثرا للجهاز المسلح ، وخاصة وضع يحظر
التجول فيه . كل شيء في المطار كان نظيفا وبراقا اعلانات مشرقة
الالوان ، واجهات كبيرة تحوي عينات عدة للبيع ، لكنني لم اشاهد
هناك دليلاً واحدا يرشد مسافرا تائها .

لم تكن سيارات الاجرة التي كانت تنتظر على قارعة الرصيف ذات
الموديلات القديمة والضجة المزعجة التي عهدتها ، وانما ذات موديلات
يابانية حديثة كلها متشابهة ومنظمة .

حتى تلك اللحظة لم استبق الامور ايلينا لم تظهر بعد ، كنت جاهزا مع الحقائب في السيارة ، والساعة تمضي قدما ، ويقترب موعد حظر التجول ، عندها غلى الشك من جديد ، فطبقا لتعليماتنا ، اذا خرج احدنا ولم يتبعه الآخر ، فليستمر الاول قدما ، ويخطر الجهات المسؤولة عما جرى بالهاتف .

شق علي ان اتخذ قرارى بالذهاب لوحدي ، خاصة واننا لم نتفق حول الفندق الذي سنحل فيه .

عند دخول الديار قررت الذهاب الى فندق الكونكستادور* وهو فندق يرتاده كبار رجال الاعمال ، ويلائم صفتنا الزائفة ، كما وان الفريق الايطالي اقام هناك فكرت مليا ، فأيلينا لا تعرف ذلك ، وانا على وشك ان اضع حدا للانتظار ترتجف اوصالي من الاحباط والبرد ، لمحتها تركض نحوي ، يلاحقها غير بعيد عنها رجل بلباس مدني يلوح (بمشمع) واق للمطر في يده .

تجمد الدم في عروقي ، هيات نفسي لما هو اسوأ ، في نهاية المطاف ادركها الرجل (بالمشمع) الذي نسيته على منضدة الجمارك .

تعوقت لسبب آخر : فطنت المفتشة الى انها تسافر بدون حقائب ، فنبشوا كل ما في حقيبة يدها بدقة ، وجوازها ، وكل ما يخصها ، لكن لم يتصوروا ان جهاز الراديو الياباني الصغير الذي كانت تحمله هو بحد ذاته سلاحا ، بواسطته سنواصل اتصالاتنا مع المقاومة في الداخل بمحطة خاصة ، كنت معكر المزاج اكثر منها ، ظننت انها تأخرت اكثر من نصف ساعة ، وهي تبرهن لي في السيارة على انها لم تتأخر سوى ست دقائق .

من جهته دس سائق السيارة انفه ، وهدأ من روعي ، بانه لا زال امامنا ثمانون دقيقة حتى يحظر التجول وليس عشرين دقيقة كما ظننت ،

فإذا ساعتي لازالت بتوقيت الريودي جانيرو ، تشير الى العاشرة واربعين دقيقة في ليلة قائمة وصقيعية .

* الفاتح

« الأجل هذا-أتيت ؟؟ »

بدلاً من دموع الفرح ، راودني الشك ، خلال توجهنا نحو المدينة ، ففي الواقع كانت طريق المطار القديم « لوس ثيريوس »* قديمة ، على جانبيها منشآت صغيرة بائسة ، وازقة للمعدمين الذين عانوا قمعاً دموياً أثناء الانقلاب العسكري . طريق المطار الدولي الحالي ، أكثر اتساعاً ، توهج أضواؤها كما هي في أكثر بلدان العالم تطوراً .

بداية سيئة لي ، لم أكن على قناعة فقط بسوء الدكتاتورية ، وإنما كنت متلهفاً أن أرى فشلها أيضاً في الشارع ، وفي الحياة اليومية ، وفي تجلياتها على مظاهر الناس ، لتصوير ذلك ، وعرضه في أنحاء العالم . في كل متر كنا نجتازه كانت انطباعاتي المسبقة تنقلب إلى أحباط جلي ، حتى أن أيلينا اكتنفها نفس الشعور الغريب ، فقد أفصح لي مؤخراً ذلك ، رغماً عن أنها مكثت في تشيلي مرات عدة في الزمن الراهن .

* الشموع

على ارض الواقع ، كانت سانتياغو على عكس ما كنا نتصوره في المنفى ، تبدو مدينة براقية ، بمعالمها المضيئة البديعة ، نظيفة الشوارع ، ونادراً ما تبدو اجهزة القمع بل وحتى لا تظهر كما في باريس او نيويورك .

فتح امام اعيننا شارع (برناردو او هيجنز) الذي اصطفت على جانبيه اشجار لا تنتهي ، كحشد من الازواء ، بدءاً من المحطة الرئيسية التاريخية التي صممها غوستافو ايفل ، مصمم برج ايفل في باريس ، حتى بائعات الهوى الليليات على الرصيف المقابل اقل حزناً ويؤساً من ازمة مضت .

فجأة بدا «قصر المونيدا» مثل شبح يشيع الرهبة في صدور الناس ، في آخر مرة شاهده فيها ، كان مظهره الخارجي مغلقاً بالرماد ، الآن رموه واصبح قيد الاستخدام ، يظهر المبنى بكل آيات الجمال في عمق حديقة فرنسية .

من خلال نافذة السيارة تبدو معالم المدينة البارزة ، بدون انتظام ، نادي الاتحاد ، حيث يجتمع كبار الاثرياء ليحتكروا خيوط السياسة التقليدية ، وتبدو نوافذ الجامعة المطفأة ، وكنيسة سان فرنسيسكو ، وقصر المكتبة الوطنية ، ومخازن باريس . كانت ايلينا الى جوارى تتابع مهمتها ، تقنع السائق بان يقودنا الى فندق الكونكستادور ، وهو يلح على اخذنا الى فندق آخر ، بالتأكيد حيث يدفعون له عمولة على الزبائن .

كانت تبادله الحديث بدمثة ، دون ان تجرح شعوره ، او تثير انتباهه ، فالعديد من السائقين في سانتياغو يعملون كمخبرين للشرطة ، كنت في حيرة من امري ألتدخل ام لا .

ما إن اوشكنا على الاقتراب من مركز المدينة ، حتى عدت

لأختلس النظر الى الرنق المادي الذي صنعتة الدكتاتورية كي تمسح
علائم جريماتها الدموية بحق اكثر من اربعين الف قتيل والفي مفقود ،
ومليون منفي .

دقت النظر في الناس ، كانت تسير بسرعة غير اعتيادية ، ربما
يعود ذلك لقرب موعد حظر التجول ! ليس هذا فقط ما استرعى
انتباهي ، ففي وجودهم عنف الريح الثلجية ، لا أحد يتكلم أو يركز
نظراته في اتجاه محدد ، لا أحد يبدي شعوره ، أو يضحك ، ولا أحد
يتصرف بطريقة تبدي هواجسه النفسية داخل المعاطف القائمة ، بدا
وكان لا أحد منهم يعرف الآخر ، وكل بوحدايته في هذه المدينة .

وجوههم بيضاء خالية من التعابير والخوف ، لا تعكس شيئاً ،
عندها تغيرت انطباعاتي ، شيء الح علي في جوانحي لم استطع
مقاومته ، ان اترك السيارة ، واختفي بين حشد البشر هذا . نبهتني
ايلينا الى العواقب ، حذرتني بما استطاعت دون ان يسمعها السائق .
اسيرا لشعور لم استطع مقاومته ، اوقفت السيارة ، ونزلت منها
بعد ان اغلقت الباب خلفي بعنف .

مشيت مئتي متر على غير هدى قبيل حظر التجول ، اول مئة متر
كانت كفيلة لأبدأ باسترجاع مديني . مشيت في شارع استادو* وشارع
هويرفانوس** وفي شوارع اغلقت فقط لسير المشاة لا السيارات ، مثل
شوارع فلوريدا*** دي بوينوس آيرس وفياكوندوتي دي روما ، وساحة
بياو بورغ دي باريس ، وزونار وساثيوداد دي مكسيكو .

تناثرت هناك مقاعد خصصت للجلوس والحديث ، وإزدانت
الشوارع بالاضواء البهيجة ، واحواض الزهور التي خصص عمال
للاهتمام بها ، انجازات الدكتاتورية الجميلة هذه لم تستطع ان تموه
الحقيقة ، القلة من الناس التي كانت تتحدث عند الركن تتهامس

بصوت منخفض ، كي لا تلتقط الاذان المنتشرة للسلطة ما يقولون
والباعة المتجولون يعطونك صورة نقيضة ، وهناك الكثير من الاطفال
تسول من المارة .

اكثر ما شد انتباهي اولئك المبشرون الدينيون يعطون في الشارع
ويشرون بكتيباتهم الدينية التي يبيعونها للناس .

وبجوار الركن عند عودتي فوجئت برؤية اول رجل امن منذ
وصولي ، يتسكع بهدوء من رصيف الى آخر ، شاهدت العديد منهم في
كابينة خصصت للمراقبة عند ركن هويرفانوس . شعرت بفراغ في
معدتي ، تراقصت قدماي ففي كل مرة ارى فيها هؤلاء امتلىء غيظا
ويتابني ذلك الشعور . في الحال تنبعت الى انهم مستنفرون يراقبون
وبأعين ثابتة العابرين ، يبدو انهم مرتعبون ، مما واساني في عزائي ،
كانوا محقين في خوفهم ، فقبل قدومي بأيام قليلة ، فجرت المقاومة
كابينة المراقبة تلك بالمتفجرات واطارتها الى السماء .

• الدولة

• • الأيتام

• • • الزاهرة

« في معقل ذكرياتي »

عناصر ماضي كانت هنا ، حيث المقر الذي لا ينسى لقناة التلفزيون القديمة وقسم التصوير والبرامج المتلفزة ، وكانت هنا كلية المسرح ، حيث اتيتها من قريتي في المحافظة ، عندما كان عمري سبعة عشر عاماً ، لتقديم امتحان القبول الذي حدد مجرى حياتي ، هنا أيضاً كنا نقوم بمهرجانات سياسية للوحدة الشعبية ، عشت فيها ولأول مرة أفلاماً خالدة ، للحظة احس بعظمتها ، ومن بينها ذلك الذي لا ينسى « هيروشيا مون أمور » .

فجأة ، مر أحدهم يغني أغنية بابلوميلا نيز الشهيرة : سادوس الشوارع التي عمدها سانتياغو بدمه مرة أخرى ، يالها من مصادفة عظيمة ، لم احتمل احسست بحشجة في الحنجرة ، ارتجفت حتى عظامي ، نسيت الساعة ، نسيت هويتي ، ووضعني السري ، للحظة عدت لأشعر بكياني أنا نفسي ولا أحد غيري في مدينتي المتمردة ، كان علي ان أقاوم ما يدفعني في أعماقي بدون تعقل كي أكتشف هويتي واصرخ اسمي بكل ما اوتيت من قوة ، وأواجه من يصدني أيا كان في حقي أنا أعيش في موطني .

قبيل موعد حظر التجول عدت الى الفندق باكيا ، فتح الباب لي الباب ، الذي فبرغ من إغلاقه . كانت ايلينا قد سجلت وجودنا عند الاستقبال ، في الغرفة كانت تمدد هوائي الراديو الصغير . مستغرقة في الهدوء ، ما إن شاهدتني أدخل حتى انفجرت في وجهي كزوجة تقليدية . لم تتصور أنني جازفت ومشيت في الشوارع حتى قبيل حظر التجول . لكنني كنت جاهزاً لتقريعاتها كما وتصرفت كزوج تقليدي ، خرجت طارقا الباب خلفي ، وذهبت لأفتش عن الفريق الايطالي في نفس الفندق . طرقت الغرفة ٣٠٦ ، اسفل طابقنا بدورين ، جهزت نفسي حتى لا أرتبك في الاشارات التي اتفقت عليها مع مديرة الفريق ، قبل شهرين .

خرج علي صوت نصف نائم عرفت فيه صوت غراسيا الدافيء بدون الحاجة الى الاشارات السرية .

سألتني من الداخل : - من أنت ؟

- غابرييل .

سألت - ثم ماذا ؟

قلت - ملائكة السماء .

- سان خورخي وسان ميغيل

بدلا من ان تهديء إجاباتي الصائبة من روعها ، في كل مرة كانت ترتجف نبرات صوتها أكثر ، كم كان غريبا ، فهي بالتأكيد تعرف صوتي ، بعد محادثاتنا المسهبة في ايطاليا ، ولكنها عاودت من جديد تتساءل عن القديس والعلائم ، عدت فأكدت لها . . سان خورخي وسان ميغيل .

قالت : ساركو

كان ذلك اسم بطل الفيلم الذي عملته في سان سيباستيان -

مسافر الفصول الاربعة - واجبتها قائلًا الاسم :
- نيكولاس .

لم يرق لغراسيا ، الصحافية المتخصصة للمهام الصعبة الاختبار
فتابعت

- كم قدم طول الفيلم ؟
ساعتها فهمت أنها ستستمر في إلقاء الاسئلة حتى النهاية ،
كانت بعيدة عن الباب . دخل في روعي ان تثير هذه الظنون في الجوار ،
اذا ما سمعنا رواد الغرف المجاورة .

قلت : - كفى هراء ، وافتحي الباب .
لكنها أفصحت عن عناد عايشته معها في كل دقيقة في الايام
القادمة ، لم تفتح الباب حتى نهاية الشيفرة . قلت في نفسي :-
«باللعنة» ، لم يجل في خاطري عندها ايلينا فقط ، وانما أيضاً
ايلي ، «كل النساء واحدة» ، على مضض ، اذعنت لاسئلتها ، اكثر ما
ابغضه في الحياة خنوع الأزواج لزوجاتهم . ما إن وصلنا الى نهاية الدرب
حتى ، فتحت . غراسيا الشابة الرائعة التي عرفتها في إيطاليا الباب
بدون مقدمات ، حملت في كما لورأت شبحا ، وعادت لتغلقه فزعة .
قالت فيما بعد « رأيتك كما لو أنني شاهدتك سابقا ، ولكنني لم
أعرف من تكون» . امكنني توضيحه ففي إيطاليا عرفت ميغيل ليتين
ذلك الذي لا يكثر بمظهره وملبسه ، ملتحيا ، وبدون عدسات ،
اما الرجل الذي طرق الباب ، فكان أصلع ، ضعيف النظر ، ناعم
الذقن ، يرتدي ملبسا أشبه لمدير مصري .

قلت لها : افتحي الباب ، هدئي من روعك - أنا ميغيل
تفحصتني باهتمام ، ثم اذنت لي بالدخول ، واستمرت تحملق في
بخبت قبل أن تصافحني ، فتحت الراديو بصوت عال ، كي لا يتناثري

ما نتحدث به الى مسامع رواد الغرف المجاورة ، أو تحسبا فلعل هناك آلات تسجيل خفية في أركان الغرفة ، كانت هادئة ، وصلت الى هنا منذ اسبوع مع فريقها المكون من ثلاثة اشخاص ، وهم مزودون بتصاريح تسمح لهم المباشرة في العمل ، ذلك بفضل الجهود الحيرة لسفارتهم ، وبالتأكيد فان موظفيها لا تعرف كنه غايتنا . وحتى أكثر من هذا : فقد دشنوا العمل وبدأوا يصورون كبار المسؤولين في النظام الذين حضروا قبل ليال قليلة العرض البهي «مدام بترفلاي» الذي قدمته السفارة الايطالية في المسرح البلدي . دعي الجنرال بينوشيت الى ذلك الحفل ، لكنه اعتذر في آخر ساعة . ما قام به الفريق الايطالي اثناء وجوده في العرض ، كان هاما بالنسبة لنا ، حيث استطاع ان يثبت وجوده في سانتياغو بطريقة رسمية ، مكنه ذلك من التحرك في الشوارع في الايام التالية بدون أن يدور حوله أدنى شك . من ناحية أخرى . كان تصريح التصوير داخل قصر المونيدا جاهزا ، وتم التأكيد بأن لا معوقات ستعترضنا .

أثلج الخبر صدري كثيرا ، وددت العمل في الحال ، لولا حظر التجول لطلبت من غارسيا أن توقظ كل الفريق . لنقوم بأول أعمالنا الوثائقية ليلة عودتي . وضعنا برنامجا محددنا كي نبدأ بالتصوير ومنذ الساعات الاولى على ان لا يعرف اعضاء الفريق البرنامج قبل اوانه ، وان يتوهموا بأن غراسيا هي من يقودهم . غراسيا من جهتها . لا تعرف أن هناك فريقين آخرين يعملان معنا في نفس الفيلم . قطعنا شوطا كبيرا ونحن نحسني جرعات الغرابا grappa الايطالية ، مشروب كحولي ايطالي اشبه بالنار الملتهبة ، كانت تحملها دائها ، يساعد في جميع الأحوال . عندما قرع جرس الهاتف ، قفز كلانا في نفس الوقت ، تناولته غراسيا ، استمعت للحظة ثم عادت لتغلق الساعة .

كان ذلك أحد موظفي قاعة الاستقبال في الفندق ، طلب منها
أن تخفض صوت الموسيقى حيث خابره أحد المقيمين في الغرف المجاورة
ليسكت الجهاز . .

«الصمت الرهيب استل ذكرياتي

تدفقت المشاعر في يوم واحد. عندما عدت الى غرفتي، كانت ايلينا تبهر في نوم عميق، وقد تركت ضوء منضدتي مشتعلًا وخلعت ملابسي دون أن أثير ضجة، هيات نفسي للرقود كما أوحى لنا الله، كان ذلك من المحال، فما أن دسست نفسي في الفراش، حتى تنبعت الى الصمت المخيم الرهيب أثناء منع التجول، لا أتصور صتا آخر شبيها لذلك في العالم. . الصمت كان يضغط على صدري، يستمر بالضغط أكثر. . . أكثر، لم يكن لينتهي أبداً. لا ضجة اطلاقا تسمع في هذه المدينة المطفأة المترامية الاطراف. ولا حتى ضجة الماء في الانابيب، ولا تنفس ايلينا، ولا حتى نفس حركة جسمي العضوية في داخلي، نهضت منتفضا، وطللت من النافذة لاشتت هواء الشارع العليل، ونظرت المدينة المتصحرة، ولكنها مدينة بحق وحقيقة، لم أشاهدها أبدا بهذه الوحداية والكآبة، منذ أتيتها أول مرة، لا أذكر متى في أيام المراهقة. كانت النافذة في الطابق الخامس، تطل على زقاق بدون مخرج تحيطه، جدران عالية اكتحلت من الاعلى. من داخل الفسحة، لا يشاهد سوى بقعة من السماء خلال الغيوم الرمادية. لم أحس أنني في

وطني، ولا حتى في وسط الحياة اليومية العادية، سوى مجرم أضيق الخناق عليه كما في تلك الافلام الشتوية القديمة لمارسيل كارنيه . في السابعة صباحا قبل اثني عشر عاما، فتح سرجنت من فصائل الجيش زخة من رشاشه فوق رأسي، وأمرني أن أنضم الى مجموعة من السجناء يساقون الى مبنى «تشيلي فيلمز» حيث كنت أعمل .

كانت المدينة ترتعد من فرقة شحنات الديناميت، وزخات الرشاشات البعيدة المدى، وتحليق وانقضاض الطائرات العسكرية كان السرجنت الذي اعتقلني جاهلا بها يجري ، لدرجة أنه سألني عما يحدث في اللحظة التي انفردنا بها . . . سألني :

- أنت السيد الذي عمل فيلم «تساكال دي ناهو يلتورو»* رددت عليه بالايجاب، بدا وكأنه نسي كل شيء من جراء أصوات الطلقات وفرقة شحنات الديناميت والانفجارات المتوالية في قصر الرؤساء، وطلب مني أن أوضح له كيف ينزف الدم من جروح الممثلين وكيف يموتون في السينما فينت له ، سره معرفة ذلك، لكنه سرعان ما تنبه الى ما يجري وانقلب يصرخ فينا - : اياكم والنظر الى الخلف، والا طيرت رؤوسكم . ظننا أن ما يدور ما هو الا ضرب من اللهو، حتى وقعت أعيننا بعد دقائق قليلة من ذلك على أوائل الجثث الملقاة في الشوارع، جريحا ينزف دما على أحد الارصفة دون أن يتلقى اسعاف من

chacal de Nahuelito

* - فيلم من اخراج ميغيل ليتن وهو يدور حول قصة واقعية حدثت، فيه يقوم رجل بعدة جرائم ومن ثم تلقي الشرطة القبض عليه، يتعلم في السجن القراءة والكتابة وغير ذلك من القيم، وعندما تغيرت مسلكيته وأصبح مواطناً صالحاً جديراً باطلاق سراحه، يقاد الى ساحة الاعدام ويعدم .

أحد، وعلى زمر مدنية تجهز على مناصري الرئيس سالفادور الليندي بقضبان حديدية .

رأينا مجموعة من السجناء وصدورهم على الجدران، وثلة من قوات الجيش تنهياً للأجهاز عليهم، ويؤكدون «نحن محايدون» واختلط الحابل بالنابل، كانت بناية «تشيلي فيلمز» محاطة بجنود مزودين برشاشات منصوبة على قواعد ثابتة ومصوبة نحو المدخل الرئيسي . خرج البواب معتمراً قبعة سوداء عليها شعار الحزب الاشتراكي للملاقاتنا صاح مشيراً الى - آه، هذا الرجل هو السيد ليتين، المسؤول عن كل ما يجري هنا. . .

دفعه السرجنت دفعة قوية أطاحت به أرضاً وصاح فيه فلتذهب الى الجحيم، لا تكن مخثلاً.

أقعى البواب على أربع كالكلب، وسألني مرتعبا:

الا تريد أن تتناول قليلا من القهوة، سيد ليتين، قليلا من القهوة؟ أمرني السرجنت أن أستفسر عما يحدث بالهاتف، حاولت ذلك، لكنني لم أستطع إن! أخبر أحدا. في كل لحظة يدخل ضابط ويعطي أمرا، يأتي آخر ويصدر أمرا مغايرا، تستطيعون التدخين، ممنوع التدخين، اجلسوا قفوا. أخيرا وبعد نصف ساعة وصل جندي فتي، وأشار إليّ بسلاحه مخاطبا السرجنت:

- اسمعني يا سرجنت هناك سيدة شقراء تسأل عن هذا الرجل كانت ايلي بدون شك، خرج السرجنت لمقابلتها أثناء ذلك، حدثنا الجنود بأنهم أخرجوا من ثكناتهم فجراً بدون تناول الافطار، أعطيت لهم تعليمات برفض أي شيء، كانوا يرتجفون من البرد جائعين، سجانرنا كانت الشيء الوحيد الذي بوسعنا تقديمه لهم .

على هذا الحال كنا عندما عاد السرجنت برفقة الضابط وبدأ يدقق

في هويات المعتقلين لتحويلهم الى ساحة الملعب، عندما وصلني الدور، لم يترك السرجنت مجالا لي للاجابة . قال لمسؤله - لا ، ياسيدي الضابط - هذا السيد ليس له أية علاقة ، اتى الى هنا ليتقدم بشكوى ، حيث أن بعض الجيران هشموا له سيارته بالعصي . جحظ الضابط في برية .
- ولديك القدرة لتقدم بشكوى في هذه اللحظة؟ .

وقال دون أن يوضح شيئا:

- هيا، طر من هنا .

أطلقت ساقى للريح ، وأنا على قناعة بأنهم سوف يطلقون الرصاص على ظهري ، ويصفونني تحت طائلة عقوبة الفرار، لم تجر الامور كما اعتقدت ، كانت ايلي قد أتت لاختذ جثتي ، حيث أخبرها صديق بأنهم نفذوا في الاعدام أمام «تشيلي فيلمز» .

ارتفعت أعلام خفاقة على العديد من المنازل في الشوارع ، كانت تلك اشارة تدلل للعسكر على مواقع مؤيديهم ، في حين وشت بنا احدى جارائنا تعرف من علاقتنا بالحكومة ، وعن مشاركتي الفعالة في حملة الانتخابات الرئاسية لصالح الليندي ، وكذلك عن الاجتماعات التي كانت تدار في بيتي قبيل الانقلاب العسكري ، لم نعد الى بيتنا خلال الشهرين التاليين وكنا ننتقل من بيت الى بيت نجرجر أطفالنا وحاجياتنا الضرورية ، هاربين من الموت المحقق والذي يطارنا من كل صوب واستفحل الحصار وزاد من تضيق خناقه حتى أرغمنا على أن ندلف نفق المنفى .

الفصل الثالث

«منفيون في وطنهم»

في الثامنة صباحاً طلبت من ايلينا أن تتصل لي برقم هاتف لايعرفه أحد سواي، وأن تسأل عن شخص، أفضل أن أطلق عليه تعب زائف: فرانكي، اجابها نفس الشخص، وأخبرته انها من طرف غابريل، وبدون مقدمات طلبت منه أن يتوجه الى الغرفة رقم ٥٠١ في فندق الكونكستادور.

وصل في أقل من نصف ساعة بينما كانت ايلينا على وشك الخروج، وانا لازلت قابعاً في الفراش، وعندما سمعت قرع باب الغرفة. دثرت نفسي بالشرشف واخفيت رأسي، لم يكن فرانكي على بينة من سيقابه، كنا على اتفاق مسبق بأن يُطلق على أي مبعوث أرسله من طرفي غابريل.

في الأيام الاخيرة اتصل به ثلاثة يدعون غابريل، كانوا قادة فرق التصوير من ضمنهم غراسيا، فلماذا لا يكون هذا الغابريل الجديد أنا نفسي.

كنا أصدقاء منذ فترة طويلة، سبقت أيام «الوحدة الشعبية». عملنا سوية في أفلامي الأولى، التقينا مرات عدة في مهرجانات متفرقة للسنيما، آخر مرة التقينا فيها، كانت العام الماضي في المكسيك، مع ذلك عندما ازحت الغطاء عن وجهي لم يعرفن، حتى ضحكت (علامتي المميزة) وهذا ما عزز ثقته في مظهري الجديد، فرانكي كان مجنناً لحسابي منذ نهاية العام الفائت، يترتب عليه استقبال وتوزيع التعليمات المسبقة على فرق التصوير كل على حدة، وقام بسلسلة التحضيرات الأساسية لتسهيل عملنا، بدون تعارض مع توجيهات ايلينا. كانت اضارته نظيفة لدى أجهزة الأمن، فهو مواطن تشيلي،

نفى نفسه الى كاراكاس طواعية بعد الانقلاب العسكري ، وبدون أن توجه أية تهمة اليه . منذ ذلك التاريخ انجز عدة مهام سرية داخل كشيبي ، حيث كان يتحرك بمطلق الحرية ، ودون أن يثير الشبهات .

له شعبية في الوسط السينمائي ، قوامها دماثته الشخصية ، خياله وجراته ذلك ما جعله شريكى المناسب في هذه المغامرة ، لم أخطئ الظن فقد دخل دون رفقة أحد قبل أسبوع ، قادماً من البيرو براً الى تشيلي كما اتفقنا ليستقبل ويتعاون وبشكل منفصل مع الفرق الثلاث وها قد باشرت الفرق بالعمل . الفريق الفرنسي كان يعمل في شمال البلاد ، ويقوم بالتصوير مغطياً المنطقة بدءاً من أريكا وحتى بالبارائيسو ، طبقاً لخطة دقيقة التفاصيل رسمتها قبل أشهر في باريس مع مديرها .

يقوم الفريق الهولندي بالعمل نفسه في الجنوب ، أما الايطالي فسيمكث في سانتياغو للعمل تحت قيادتي الشخصية ، وتحت أهبة الاستعداد أيضاً لتغطية أي حدث مفاجئ .

كانت لدى الفرق الثلاث تعليمات باستطلاع اراء الناس حول سالفادور الليندي متى تسنح الفرصة لهم بذلك ودون الوقوع في مغبة المخاطرة أو اشارة الشكوك . حيث وجدنا في الرئيس الراحل جوهرراً حساساً لجس النبض ومعرفة وجهة نظر أي مواطن من حيث علاقته مع الوضع الحالي وآفاقه المستقبلية المحتملة .

كانت لدى فرانكي خريطة عمل لكل فريق ، وحتى قائمة الفنادق التي كان من المفروض أن تحل فيها ، بحيث تمكنه من متابعة الاتصال معهم في أية لحظة وهذا ما يسر لي اعطاءهم تعليمات شخصية بواسطة الهاتف ، وزيادة في الأمان ، سيقودني فرانكي بسيارة مستأجرة نستبدلها بأخرى كل ثلاثة أو أربعة أيام ومن شركات تأجير مختلفة ونادراً ما كنا نفرق خلال الفترة التي استغرقها التصوير .

«ثلاثة ذبحوا ولكنهم أسقطوا جنراً»

باشرنا العمل في التاسعة صباحاً. في «بلاثادي لاس آرماس»
والتي تبعد عن الفندق بضعة مفارق، كانت تعج بالحركة أكثر مما كانت
عليه أيام ذكرياتي.

بدت لي الزهور الدائمة والمتجددة كل أسبوع، أكثر غضاضة
وهجة عما كانت عليه في أي وقت مضى، تحت أشعة الشمس الشاحبة
تسلل بين أوراق تلك الأشجار الضخمة، في خريف تلك البقاع
الثلجية.

قبل ذلك بساعة ابتدأ الفريق الايطالي بتصوير الحياة اليومية،
متقاعدون يقرأون الجرائد على المقاعد الخشبية، عجائز تطعم الحمام،
باعة متجولون، مصورون بماكيناتهم القديمة ذات الكم الاسود،
ورسامو الكاريكاتور في ثلاث دقائق، ماسحو الأحذية المشبوهون،
الذين تفوح منهم رائحة المخبرين، أطفال بباليوناتهم الملونة أمام عربات
البوظة، أناس تخرج من الكاتدرائية. في أحد أركان الساحة، كان هناك
فريق محلي خاص من الفنانين ينتظر عقوداً لإحياء حفلات خاصة،
موسيقيون معروفون، سحرة، ومهرجو أطفال، مخشون متبرجون يرتدون
أزياء فاضحة فيها إثارة جنسية لا يمكن وصفها.

على العكس من الليلة السابقة، في ذلك الصباح المشرق تترست
في الساحة قوات متعددة من الشرطة، مجهزة ومدججة بالسلاح،
ترافقهم باصات تنبعث من أجهزتها الموسيقية القوية أغاني حديثة وبأعلى
درجة.

لاحقاً اكتشفت أن القادم حديثاً للوهلة يسترعيه قلة رجال الأمن في الشوارع . ولكن طوال اليوم تبين لي أن هناك فرقاً أمنية مختبئة في المحطات الرئيسية في أنفاق القطار، وهناك اطفائيات مزودة بمضخات الماء في الشوارع الجانبية، جاهزة للبطش الأعمى وقمع أي احتجاج كان، كتلك المظاهرات العديدة واليومية التي تحدث دون سابق انذار. المراقبة شديدة جداً في «بلاثا دي لاس ارماس» مركز المدينة الذي يعج بالحركة في سانتياغو، حيث يقع هناك مقر الـ (فيكاريا دي لاسوليدا ريداد)*.

وهي منظمة كبيرة تنشط في مهاجمة الدكتاتورية، أسسها وقاد نشاطاتها الكاردينال «سلفا انريكيث»*، بتضافر جهود الكاثوليك، وكل الذين يناضلون من أجل عودة الديمقراطية إلى تشيلي. هذا ما أعطاه مراساً صلباً، لا يتوانى فيه عن مقاومة السلطة. والساحة الواسعة المشمسة أمام بيته الكولونيالي، أشبه بساحة سوق. حيث تجدد هناك ملجأً وعطفاً إنسانياً لكل الملاحقين من جميع الألوان، حيث يقدم العون لمن هم بحاجة، وبكل ما في وسعهم يعملون على أن تصل شكواهم إلى حيث يجب أن تصل، وخاصة ما يتعلق بالسجناء السياسيين وعائلاتهم.

وأيضاً من هناك تنظم الحملات من أجل المفقودين ويستنكر التعذيب وكل أشكال الضيم.

قبل أشهر قليلة من دخولي السري، قامت الدكتاتورية بهجوم

* ساحة السلاح

* منظمة ضمن الكنيسة الكاثوليكية تتقدم اليها عائلات المفقودين بشكواها، لدى هذه المنظمة الانسانية محامين واطباء وغيرهم، تقوم برفع الشكاوى الى السلطات وتساعد في البحث عن المفقودين والدفاع عن المسجونين.

دموي ضد منظمة الفيكاريا، انقلب هذا الفعل على الطغمة العسكرية
وهدد استقرارها.

في أواخر شباط عام ١٩٨٥، اختطف ثلاثة أشخاص من قوى
المعارضة بالقوة، وبما لا يدع مجالاً للشك في هوية الفاعلين، اقتيد عالم
الاجتماع خوسي مانويل بارادا، الموظف في الفيكاريا، بالقوة وبمرأى من
أعين أطفاله الصغار أمام مدرستهم، حدث ذلك في نفس الوقت الذي
أغلقت فيه الشرطة حركة المرور في المفارق المؤدية لتلك المنطقة، أثناء
ذلك كانت طائرات الهليكوبتر العسكرية تحوم فوق ذلك القطاع. أما
الاثنان الآخران فقد اعتقلا في أماكن مختلفة من المدينة، وفي ساعات
متباينة. أحدهم كان مانويل غررو، رئيس اتحاد موظفي التعليم في
تشيلي، والاخر كان سانتياغو ناتيفو، رسام جرافيك، مشهور على صعيد
حرفته، حتى تلك اللحظة لم يكن ليُعرف له أي انتهاء أو نشاط سياسي.
وإمعاناً في احتقار الثقافة الوطنية.

في الثاني من آذار عام ١٩٨٥ عُثر على الجثث الثلاث مذبوحة،
وقد بدا عليها آثار القسوة الوحشية، وفي طريق مهجور جوار مطار
سانتياغو الدولي. صرح الجنرال مندوزا دوران، قائد قوة حفظ الأمن،
وعضو الطغمة العسكرية للصحافة آنذاك بأن جريمة قتل الثلاثة هي
نتاج لصراعات الشيوعيين الداخلية، والتي توجهها موسكو. استسفه
الرأي العام الوطني الجنرال وتصريحه، وأشار إلى الأيدي المرتكبة لهذه
المجزرة، اضطر الجنرال أن يترك الحكومة. منذ تلك اللحظة، شطبت
أيدي مجهولة اسم شارع بوينتي، أحد الشوارع الأربعة التي تتجه إلى بلاتا
دي لاس ارماس من على اللائحة، ووضعت بدلاً عنه الاسم الذي
يعرف به الآن، شارع خوسي مانويل بارادا.

* رئيس الكنيسة الكاثوليكية قبل وبعد الانقلاب، أحيل على التقاعد لتجاوزه السن عام ١٩٨٥،
محبوب في اوساط التشيليين لصلابة مقارعه للنظام على عكس الرئيس الحالي المشبوه بتواطئه مع
النظام.

«أهنتك لكونك اورغوائي»

سوء طالع تلك المأساة الوحشية لازال يعبق في الهواء الصباحي لذلك اليوم الذي مررنا فيه أنا وفرانكي صوب بلاتا دي لاس آرماس . شاهدت فريق التصوير في المكان الذي حددته مع غراسيا في الليلة السابقة . تنبّهت إلى إجتيازنا . حتى تلك اللحظة لم تعط أية تعليقات الى المصور . عندها انفصل فرانكي عني ، واشرفت شخصياً على الفيلم حسب الطريقة التي كنا قد قررناها سابقاً مع مديري الفرق الثلاث . أول ما فعلته كان قيامي بجولة استطلاعية في الشوارع المرصوفة بالحجارة والمخصصة لحركة المشاة ، أتوقف في أماكن مختلفة اشير فيها لغراسيا ، اللحظات والاتجاهات التي يجب أن تصور فيها عندما أعيد الكرة في جولتي . أثناء ذلك علينا ألا نبحث في تفاصيل تثير الشبهات ، وتلفت نظر قوى الأمن المسترة في الشوارع ، خصصنا صباح ذلك اليوم فقط كي نتعامل مع البيئة المحيطة كغيره من الأيام ، بينما نغير اهتماماً خاصاً لتصرف الناس ، كما تخيلتها في الليلة الفائتة ، أقل اتصالاً فيما بينها من أي وقت مضى . تمشي بسرعة ، دون اهتمام بأي شيء يذكر ، وبالكاد لما يحدث مع وقع خطواتهم ، وحتى أن الذين كانوا يتحاورون يقومون به في صمت ولا تتحرك أياديهم كي تساعد كلماتهم ، كما أذكره عن التشيليين في السابق ومازال يقوم به التشيليون في المنفى .

كنت أسير بين الجموع، أحمل في جيب قميصي، مسجلة صغيرة، حساسة جداً، كي التقط حوارات عابرة ساعدتني في أفضل تنظيم، ليس في البرنامج الاول فقط وانما على مدار الفيلم .
بعد أن تحددت نقاط التصوير، جلست أكتب ملاحظاتي جوار سيدة كانت تتشمس في أحد مقاعد الساحة ذات الطلاء الأخضر، وقد حفرت أجيال عدة من العشاق بواسطة السكاكين في خشبها قلوباً وأسماء .

كالعادة انسى دفتر مذكراتي، دونت ملاحظاتي على قفى علبة سجائر الجيتان، تلك السجائر الفرنسية الرفيعة، والتي اشترت كمية منها في باريس . هذا ما فعلته طوال فترات التصوير، وإن لم يكن لهذا الغرض احتفاظي بهذه العلب، لكن هذه الملاحظات نفعتني في يوميات رحلتي ومنها أعدت تركيب دقائق الرحلة في هذا الكتاب .

بينما كنت أكتب ذلك الصباح في بلاثا دي لاس آرماس، لاحظت أن السيدة الجالسة الى جوارى كانت تنظر الي بمواربة، فيها سكينه الكبار سناً، زبها على النمط القديم للطبقات دون المتوسطة، تضع قبعة بالية، ومعطفاً ذا ياقة من الجلد . لم أفهم ما كانت تفعله هناك، وحيدة وصامتة، دون أن تنظر صوب شيء محدد . وحتى لا تعير اهتماماً للحمام التي كانت تحوم وتحط على رؤوسنا، وتنقر أطراف أحذيتنا، أبداً لم أفهم ولا حتى لماذا قالت لي لاحقاً انه لحقها البرد أثناء القداس، فخرجت لتشمس دقائق قبل أن تدخل، وتأخذ القطار في النفق الأرضي . بينما كنت أقرأ الجريدة، لاحظت أنها تفحصني من أخمص الأقدام إلى الرأس، لابد وقد استرعتها ملابس غير المألوفة بالنسبة لأولئك الذين اعتادوا السير في الساحة تلك الساعة، تبسمت لها، وسألتني من أكون . ضغطت ضغطة خفيفة على جيب القميص

دون أن تلاحظ أنني شغلت بها . آلة التسجيل .

قلت لها : - اورغواني

قالت - آه - أهنتكم لحظكم ايها السادة .

كانت تقصد من وراء ذلك عودة النظام الانتخابي في
الاوروغواي ، كانت تتحدث بحنين دافئ عن ماضيها الخاص ،
صورت لها نفسي جاهلاً ، كي توضح لي أكثر ، ولكنها لم ترو لي شيئاً عن
حاضرها ، تحدثت لي ودون تحفظ عن قلة الحريات الشخصية ومآسي
البطالة في تشيلي ، حتى وصلت إلى لحظة ما اشارت فيها الى العاطلين
الجالسين على المقاعد والمهرجين والموسيقيين ، والمخشئين ، الذين تتكاثر
اعدادهم يوماً بعد يوم ، قالت لي : - انظر الى ذلك الشخص ، مضت
أيام ينتظر صدقة . انهم لا يعملون ، هناك جوع في بلدنا .

تركتها تتحدث ثم نهضت لابدأ جولتي الثانية في الساحة بعد أن
مرت نصف ساعة على جولتي الأولى ، لذلك أشارت غراسيا على المصور
بالتصوير دون أن تقترب مني ، حريصة على أن لا يلتفت نظر الشرطة
بشكل خاص . لكن الأمر كان على عكس ذلك ، حيث انهم لم يكونوا
ليغيبوا عن نظرائي ، كنت متعلقاً بمشاهدة تصرفاتهم وسلوكهم .

دوماً انتشر الباعة المتجولون في تشيلي ، لكنني لا أذكر أنهم كانوا
يوماً بهذه الكثرة ، يصعب أن تجد موطئ قدم في المركز التجاري للمدينة
دون أن تصادفهم بصف طويل صامت ، يبيعون كل شيء ، كثرة
وجودهم تعكس عمق المأساة الاجتماعية . الى جوار طبيب عاطل عن
العمل ، مهندس لا يعمل وسيدة بأريحية مركيزة ، تباع بابخس الاثنان
ملابس أيام عزها ، هناك أطفال بدون آباء تعرض مسروقات ، أو نساء
بائسات يبعن خبزاً عَجَنَهُنَّ بأيديهن ، لكن غالبية محترفي النعاسة هؤلاء
انغمسوا في كل شيء إلا الحياة الكريمة ، ورغماً عن وضعهم فإنهم

يظهرون ماليس لديهم في الواقع ، كما كانوا في أيام عزهم . قادني سائق
أجرة .

كان تاجراً ميسوراً للأقمشة في جولة سياحية أثناء التصوير ،
وطاف بي لساعات عدة في وسط المدينة ، ورفض أن يقبض أجرته . أثناء
تصوير بيئة الساحة ، كنت أسير بين الناس ، التقط اثناءها مقطوعات
من حوارهم ، لتوضيح الصورة المرافقة ، حريصاً على أن أن لا أظهر
أحداً على الشاشة . كنت ألاحظ أن غراسيا ترقبي باهتمام من الزاوية
الأخرى ، تتابع توجيهاتي للبدء بتصوير البنايات الأكثر ارتفاعاً ، وابتداءً
من الأعلى ومن ثم انزال زاوية تصوير الكاميرا رويداً رويداً ومن ثم
تصوير مافي الجوار وأخيراً تصوير قوات الامن والتركيز على تصوير العنف
في وجوههم . يشاهد بشكل واضح أن الساحة تعج بالحياة مع اقتراب
الظهيرة . مع هذا لاحظوا سريعاً حركة الكاميرا ، شعروا بأنهم مراقبون ،
وطلبوا من غراسيا التصريح الذي يؤهلها التصوير في الشارع ، شاهدت
كيف أظهرته لهم بسرعة .

اطمأن الرجل لذلك ، فواصلت جولتي وأنا أشعر وكأن ثقلًا قد
سقط عن ظهري ، فيما بعد عرفت أن رجل الأمن طلب منها بأن لا
تلتقط صوراً لهم . ولكن لم تكن لديه حجة ، فهذا الاستثناء غير موجود
في التصريح ، شرحت له صفتها كإيطالية ، وانها لا تتقبل أي أوامر لا
ترتاها مناسبة أثار ذلك اهتمامي ، واكد لي انه وبها لا يدع مجالاً للشك ان
المميزات الايجابية التي افترضناها مسبقاً عندما اخترنا فريقاً أوروبياً
للعمل في تشيلي كانت في محلها .

« ومن مكث ، فمفني في وطنه »

أصبح رجال الامن هاجسي ، درت مرات عدة بالقرب منهم ، انتهز فرصة للحديث فجأة لم استطع أن أقاوم ما يدفعني في داخلي أن اقرب الى مجموعة منهم ، وسألتهم بعض الاسئلة ، عن بناية البلدية ذات الطراز الكولونيالي ، والتي زعزعها الزلزال في آذار الماضي ، والتي كانوا يعيدون بناءها .

ردّ عليّ رجل الأمن الذي أجابني دون أن يلتفت إليّ ، ولهذا لم يغب عن بصري ما كان يدور في الساحة ، تصرف رفيقه مثله ، ولكنه بين الفينة والفينة كان يختلس النظر إليّ من وراء كتفه ، نفذ صبره ، فقد استشف أن اسئلتني لغاية في نفس يعقوب ، بعدها واجهني بنظراته الثاقبة وأمرني :

- هيا امش :

عندها فقدت اعصابي فبدلاً من ان اطيعهم ، تمردت على تقمصي وانكفائي الذي يكبلني ، هيات نفسي لاعطيهم درساً في السلوك مع أجنبي مسالم دب على الشرطة بفضوليته بدون شك ، لم أتنبه الى أن لهجتي الاوروغوائية لا تحمل اختباراً صعباً ، حتى سئم من جدلي الوطني . وأشار إليّ بإبراز بطاقتي . ما عانيت في لحظة من الرحلة شحنة من الخوف كتلك . فكرت في كل شيء :

كسب الوقت ، المقاومة ، أولى الادبار بسرعة وأنا على بينة من أنهم سوف يدركوني ، فكرت في ايلينا ، اين هي في هذه الساعة ، ساعتها رأيت بريقاً حيث كان المصور يلتقط ما يجري معي ، ذلك لايمكن أن يدحض اعتقالي بنشره في الخارج . كان فرانكي يتسكع في الجوار ، يشاهد ذلك ، فقد كنت واثقاً انني لا أفارق نظراته ، اسهل شيء بالمقابل أن أظهر جواز سفري ، والذي اخترته في مطارات عدة ، بالمقابل كنت مرتعباً ، أن يقوموا بتفتيشي ، تذكرت في تلك اللحظة خطأ قاتلاً كان يزحف معي ، في نفس الحقيبة التي كان فيها الجواز كانت معي البطاقة الشخصية التشيلية الحقيقية ، والتي تركتها فيها لعدم اكتراثي ، وبطاقة رصيد بنكي باسمي الحقيقي ، تنبّهت الى أنه لم يبق أمامي سوى الخنوع الى الخطر الاقل فطاعة ، اظهرت الجواز ، لم يكن عند رجل الامن حتى الثقة فيما يفعله ، نظر الى الصورة ، واعاده لي ، وسأل بطريقة أقل جفافاً :

- ما الذي تود معرفته حول هذه البناية ؟

قلت - لا شيء - هراءٌ مني .

ذلك الحادث كان علاجاً لي في بقية الرحلة ، للتشنج الذي كان يعتريني من رجال الأمن ، منذ ذلك الوقت عدت لأراهم بشكل طبيعي ، كما يراهم أي مواطن تشيلي ذي اضبارة نظيفة ، أو كما يروهم أولئك الذين يعيشون في الخفاء - وما اكثرهم - طلبت من الشرطة مرتين أو ثلاث المساعدة بحسب الحاجة ، قاموا بخدمتي بطريقة حسنة من بينها لا أقل ساعدوني وقادوني الى المطار بياص لهم حتى أتمكن من اللحاق بالطائرة المغادرة للبلاد ، دقائق قبل أن يكتشف رجال الأمن وجودي في سانتياغو . لم تستطع ايلينا أن تفهم كيف يقوم أحدهم ويتلاسّن مع الشرطة في وضع حرج كهذا ليس إلا « كي يفش خلقه »

في حين أنها قد تؤدي الى تصدع علاقاتنا في العمل والذي يدور حول مسائل سرية وخطرة ، لحسن حظي أنني ندمت على تصرفي الالهوج قبل ان تنبهي هي أو غيرها بذلك .

ما إن اعاد رجل الامن الجواز ، حتى أعطيت الإشارة الى غراسيا بايقاف التصوير ، فرانكي من جهته ، والذي شاهد كل شيء من زاوية في الساحة ، استعجل الاجتماع بي شغفاً مثلي ، لكنني طلبت منه أن يأتي ويأخذني من الفندق بعد تناول الطعام ، كنت أريد أن أبقى وحيداً .

جلست في مقعد لقراءة الجرائد اليومية ، كانت السطور تمر دون أن أراها ، لم استطع التركيز في شيء ولكن كان عظيمًا ذلك الشعور الذي أحسسته بينما كنت جالساً هناك في ذلك الصباح الخريفي الرقيق .
فجأة ، دوى مدفع عن بعد مشيراً الثانية عشرة ، طار الحمام مذعوراً ، واطلقت اجراس الكاتدرائية العنان لنوطة اغنية فيوليتا بارا*
المهيجة للمشاعر :

شكراً للحياة ، لم احتمل ذلك . فكرت في فيوليتا ، فكرت في جوعها ولياليها الباريسية بدون سقف ، فكرت في نبلها الأهل لأي اختبار ، رفضها دوماً كان مقياساً ، لم يشعر أحد باغانيها ، استهزأوا من تمردها ، رئيس ذو مجد فرض عليه الموت في تبادل لاطلاق النار ، وأن تزرع تشيلي تحت الفأس الاكثر دموية في تاريخها ، وحتى « فيوليتا بارا » كان عليها الموت على يدها ، ليكتشف الوطن عمقها الانساني وروعة شذوها . حتى رجال الامن كانوا يستمعون اغانيها باهتمام وهم على بينة فيما كانت . وما يجول في خواطرها ولماذا كانت تغني بدلاً من البكاء . كم كانت تحتقرهم ، ولو أنها ظهرت تلك اللحظة هناك لشاهدت معجزة ذلك الخريف البهي ،

* مطلع الاغنية : شكراً للحياة التي اعطيتني الكثير، وهي من اكثر الاغنيات باللغة الاسبانية

شهرة.

رحت شغفاً انتشل ذكريات الماضي شيئاً فشيئاً فذهبت وحدي الى
مطعم شعبي في المنطقة المرتفعة من المدينة ، حيث اعتدنا أنا وابلي تناول
الطعام فيه عندما كنا خطيبين . كان المكان ذاته ، تناثرت الطاولات في
الهواء الطلق تحت الاشجار ، ازهار عدة انتزعت بتلاتها ، تعطي
الانطباع وكأنه مهجور منذ مدة لم يكن هناك أحد . كان علي أن أرغي
وأزبد كي يأتوا ويلبوا لي طلباتي ، تأخروا على خدمتي حوالي الساعة كي
يقدموا أخيراً لي قطعة شهية من اللحم المشوي . وانا على وشك
الانتهاء ، دخل رجلان يعرفان أنني وابلي كنا زبائن دائمين .

كان يدعى ارنستو ، يطلقون عليه (نيتو) ، أما هي فتدعى
(البيرا) ، كان لديهما محل قائم على بعد اقدم من هنا يبيعون فيه أختاماً
وميداليات للقديسين وصوراً وصناديق دينية وسبحاً وشموعاً وزهوراً
للجناز ، لا تبدو في سبيلهم حرفتهم ، ساخري ومرحي المزاج ، في
الاقوات الطيبة وفي بعض ايام السبت اعتدنا البقاء هناك حتى ساعات
متأخره نشرب النبيذ ونلعب الورق ، عندما رأيتهما يدخلان وبأخذان
بأيديهم ، كما كانا دوماً . . لم يثر دهشتي فقط اخلاصهما لنفس المحل
بعد كل هذه التغيرات في العالم ، لكن ما ادهشني كم طعنا في السن ،
لا اتذكرهما كزوجين اعتيادين وإنما كعروسين كهلين ، شغفين
ورشيقين ، الآن يبدوان عجوزين بدينين كئيبين بديا لي كمرأة من
خلالها رأيت فجأة شيخوختي . لو أنهما عرفاني لتوجها إلي بنفس
النظرة ، لولا ان وفر درع الاوروغواي الثري الحماية لي .

اكلا على طاولة مجاورة ، يتحاوران بصوت عالٍ لكن ليس بنفس
سرعة الايام الماضية ، أحياناً وخلال ذلك كانا يسترقان النظر إلي
بفضول ، بدون أدنى شك كم كنا سعداء في زمن ولي على نفس
الطاولة .

في تلك اللحظة فقط تنبهت الى سني المنفى كم هي طويلة ومؤلمة
ليس فقط لنا كما كنت اتصور دائماً وانها أيضاً للذين مكثوا في وطنهم .

الفصل الرابع

نواحي سانتياغو الخمس

قمنا بالتصوير في سانتياغو خمسة أيام أخرى ، كانت فترة مناسبة لاختبار حسن برنامجنا ، اثناء ذلك كنت على اتصال دائم بالهاتف مع الفريق الفرنسي ، في الشمال ، والفريق الهولندي في الجنوب ، صلتني مع ايلينا كانت فعالة بحيث أنه شيئاً فشيئاً قمنا باجراء مقابلات مع من اردنا من قيادة المقاومة السرية في الداخل ، وكذلك مع شخصيات سياسية تعمل بطريقة مشروعة . من ناحيتي ، تابعت وياتقان تقمصي ، وذلك كان تضحية قاسية بالنسبة لي ، فقد كان هناك العديد من الأقارب والأصدقاء ، ممن كنت شغفاً لرؤيتهم - بدءاً من والدتي - وكذلك حنيني لعيش العديد من لحظات شبابي ، لكنهم كانوا في عالم محظور عليّ ، على الأقل بينما كنا نضع اللمسات الاخيرة على الفيلم لويت فيها عنقي وتبعث أحاسيسي ، رضخت لوضع غريب لمنفي في وطنه ، كانت أكثر صور النفي علقماً ، مرات يسيرة كنت مرافقاً فيها في الشوارع ، حيث كنت دوماً أشعر بوحدايتي ، لكن في كل الامكنة التي

كنت فيها ، كانت عيون المقاومة ترعاني ، ودون ان لاحظها ، كنت أطلب مسبقاً ان يكفوا عن مرافقتي عندما كنت ألتقي أصدقائي أو من لي ثقة عالية بهم حتى لا أخرجهم .

لاحقاً ، وبعد ان انجزت ايلينا مهمتها كدليلي المساعد في العمل ، كانت لدي القدرة أن أستمّر قدماً لوحدي ، دون ان ارتكب خطأ .

انجز الفيلم كما كان مقرراً له . لم يعاني أي من معاوين أدنى مشكلة جراء عدم اهتمامي أو خطأ مني . أحد المسؤولين عن العمل قال لي وبروح طيبة بعد ان خرجنا من تشيلي :

- دوماً في العالم ومنذ ان عرفت البشرية ، اغتصبت ولمرات عدة وبطرق خطيرة جداً العديد من التدابير الامنية .

على جميع الاحوال ، في أقل من اسبوع قمنا بعملنا الاساسي ، في سانتياغو انهيينا التصوير ، بخطة مطاطة ، تسمح لنا بان نقوم بأي تغيير على الارض ، وقد ثبت لنا وبالملموس انها الوسيلة الوحيدة للعمل في مدينة واسعة يمكن وفي اي لحظة ان تفاجأ بمستجدات ، كما واننا بحاجة الى وسائل لاثير الشبهات .

حتى ذلك الاوان تنقلنا في ثلاثة فنادق . كان الكونكيستادور مريحاً وعملياً ، ولكن كان محط انظار السلطة ، وكانت لدينا اسباب كي نشعر انه اكثر الفنادق عرضة للمراقبة . شأنه في ذلك شأن كل فنادق الدرجة الاولى والتي يرتادها الاجانب بكثرة والذين تحوم حولهم اجهزة الدكتاتورية بشبهاتها بشكل اساسي ، اما فنادق الدرجة الثانية ، فعلى الاقل تصادفك مرونة في المراقبة عند الدخول او الخروج ، كنا نخاف ان نلفت الانظار نحونا اكثر من ذلك ، ولهذا كان علينا ان نغير محل اقامتنا كل يومين او ثلاثة دون ان نغير درجة الفندق وذلك لزيادة اطمئناننا ، ولم نفكر بالعودة اطلاقاً الى اي فندق دخلناه ، كنت اخمن

تحميناً سيئاً لحظنا اذا ما عدنا الى مكان اقمنا به . ترسخ هذا الاعتقاد لدي في ١١ أيلول عام ١٩٧٣ ، اثناء قصف الطيران لقصر المونيدا ، عندما كان الجهل بما يجري يطبق على المدينة . استطعت الهرب دون معوقات من مكاتب « تشيلي فيلمز » وتوجهت الى حيث رفاقي الدائمين لبحث امكانية مقاومة الانقلاب العسكري ، وبعد ان اصطحبت في سيارتي مجموعة من الاصدقاء الذين كانت لديهم الاسباب المحقة للخوف على حياتهم الى حديقة « الفورستال » اقترفت خطأ فظيماً بعودتي ، نجوت باعجوبة كما رويته سابقاً .

زيادة في الاحتياطات ، اثناء تغيير مواقعنا في الفنادق ، قررت مع ايلينا ان نأخذ غرفاً منفصلة بعد التنقل الثالث ، كل بشخصية جديدة ، مرة كنت اسجل نفسي على انني مدير شركة تجارية وهي سكرتيرة . واحياناً كما لو كان الواحد منا لا يعرف الآخر . ايضاً فان هذا الانفصال البطيء فيما بيننا كان يعكس نفسه ايجاباً على علاقتنا ، وفي عملنا ، رغماً عن تزايد الصعوبات قدماً في الخطة الشخصية .

من بين العديد من الفنادق التي سكناها ، فقد انزعجنا فقط في فندقين . اولاً ، في الشيراتون . في نفس ليلة دخولنا فيه ، عندما بدأت أغط في نومي ، قرع جرس التلفون على المنضدة الصغيرة ، كانت ايلينا قد ذهبت الى اجتماع سري دام اكثر من المتوقع ، وتوجب عليها ان تنام في الدار . حيث فاجأها حظر التجول والذي كثيراً ما كان يحدث . اجبت مشوشاً ، دون ان أعرف أين هي ، والاسوأ من ذلك ، دون ان اتذكر من انا في تلك اللحظة ، سألت عني صوت امرأة تشيلية لكن باسمي المستعار . كنت على وشك الرد بانني لا أعرف ذلك الشخص ، عندما فرغت ، استيقظت على ان احدهم يبحث عني ، في هذه الساعة وفي هذا المكان .

كانت عاملة الهاتف، في الفندق ، وكأنها تتصل من مكان بعيد ، في ثانية دار في رأسي انه لا احد يعرف غير ايلينا وفرانكي أين أنا . كما ولا يحتمل ان يقوم احدهما ويناديني بهذه الطريقة ، وفي هذه الساعة من الفجر ، والمعضلة ان المكالمة من مكان بعيد ، شعرت بانها تتعلق بحياة او موت . قررت ان اجيب .

انفتحت على امرأة تتكلم الانكليزية بصوت انشوي دافئ لا يتوقف ، تناديني - حبيبي ، قلبي الجميل ، يا عسلي ، وعندما وجدت منفذاً ، لافهمها بانني لا اتكلم الانكليزية ، اقفلت الساعة على اهات جميلة قاتلة : قرف كان البحث عن الحقيقة مع عاملة الهاتف بدون جدوى ، الى جانب انه بعد. التأكد تبين ان هناك مقيماً آخر في نفس الفندق يحمل نفس الاسم الذي احمله في جواز سفري المزيف . لم استطع النوم دقيقة ، وسريعاً دخلت ايلينا في الساعة صباحاً ، وانتقلنا الى فندق آخر .

الفرع الآخر حل في فندق كاديرا البائس القديم - والذي تطل نوافذه الامامية على قصر المونيدا ويبدو منها بشكل كامل - انتابنا الرعب لما حدث بعد ان تركناه . حيث بعد أيام قليلة من اقامتنا هناك ، حل في الفندق شاب وفتاة على انهما في شهر العسل ، حلا في الغرفة المجاورة لغرفتنا ، ونصبا قاعدة كاميرا للتصوير ، وركزا قذيفة بازوكا مؤقتة عليها وموجهة ضد مكتب بينوشيت . كان التوجيه وآلية العمل مضبوطين تماماً ، وكان بينوشيت في مكتبه في الساعة المحددة ، لكن ارجل القاعدة انفجرت مع انطلاق القذيفة ، فانطلقت دون توجيه وانفجرت في وسط الشقة .

« نواحي سانتياغو الخمس »

قررت مع فرانكي يوم الجمعة من اسبوعنا الثاني ان نبدأ في اليوم التالي بالسفر بواسطة سيارة وعبر البلاد ، اولى محطاتنا « كونسبسيون » ، حتى ذلك الاوان ، ما زال امامنا في سانتياغو اجراء مقابلات مع قادة سريين وعلنيين ، والتصوير داخل « المونيدا » ، كرست ايلينا جهودها للمهمة الاولى ، التي كانت تتطلب تحضيراً معقداً ، كانت الموافقة على التصوير داخل قصر المونيدا جاهزة ، لكن الرخصة الرسمية المخطوطة لن تسلم قبل الاسبوع القادم . وهذا ما أتاح لي وفرانكي ان نهي عملنا في انحاء البلد ، عندها اتصلنا هاتفياً مع الفريق الفرنسي في الشمال ليعود الى سانتياغو حال انتهاء برنامجهم هناك ، وطلبت من الفريق الهولندي الذي كان يواصل برنامجهم في الجنوب ، ان يتوجه الى بويرتومونت وينتظر توجيهاتي هناك . وان استمر في عملي كالمعتاد مع الفريق الايطالي . وكما كان مقرراً ، استغللنا الفرصة يوم الجمعة لالتقاط بعض المشاهد لي في الشوارع العامة - حتى لا تنكر السلطات الدكتاتورية يوماً انني كنت على رأس فرق التصوير داخل تشيلي ، التقطت صوراً لي في ثلاث مناطق رئيسية في سانتياغو ، جوار قصر المونيدا ، وفي حديقة الفورستال وجسور المابوشو* ، وتلة سان كرسوبال وكنيسة سان فرانسيسكو ، خلال الايام السابقة كرست غراسيا نفسها للبحث عن هذه الاماكن ودراسة اماكن توضع

* المابوشو : اسم هندي احمر قديم

الكاميرات ، بحيث لا تبدد دقيقة من وقتنا ، وعليه فقد كفانا تخصيص ساعتين فقط في كل مكان ، او عشر ساعات بشكل مجمل . بحيث اظهر عليهم بعد ربع ساعة من وصولهم ، وبدون ان اتحدث مع اي كان من اعضاء الفريق ، وعلى ان انخرط في جو المكان ، بينما اشير على غراسيا ببعض التوجيهات المتفق عليها ، يحتل قصر المونيدا مساحة حيي باكملة ، بنايتاه الرئيسيتان ، المطلة على ساحة بولينس ، في الالاميدا** ، حيث مقر وزارة الخارجية ، والاخرى المطلة على ساحة دي كونستثيون ، حيث مقر رئاسة الجمهورية ، تركت انفاض مكاتب الرئاسة بعد قصف الطيران للبنانية في ١١ ايلول ، واقامت الحكومة في المكاتب القديمة لمنظمة التنمية التابعة للامم المتحدة UNCTAD ، البناية مكونة من عشرين طابقاً ، اطلقت عليها الطغمة العسكرية الشفخة لان تكون شرعية ، اسم الشهيد الليبرالي دون ديبغو بورتاليس . اقاموا في تلك البناية حوالي عشر سنوات ، وعندما انتهت اعمال الترميمات الطويلة لقصر المونيدا ، والتي كان بضمنها انشاء حصن حقيقي اضافي تحت الارض : اقبية منيعة ، وممرات سرية ، أبواب للهرب ، ممرات للطوارئ تتصل بموقع عسكري كان موجوداً قبل ذلك بكثير تحت الاسفلت . ولكن في سانتياغو يشعر انصار بينوشيت بالارتباك حيال اثبات وجود رمز السلطة الشرعية (اوهيجينز)* في تشيلي ، والذي فقد اثناء قصف الطيران للقصر . في مناسبة ما حاول احد رجال بلاط الحكم العسكري ان يبتدع خرافة ، بان اوائل الضباط الذين اقتحموا المونيدا انقذوا الرمز من السنة النار ، لكن روايته تلك لم تنطل على احد .

قبل التاسعة صباحاً بقليل ، قام الفريق الايطالي بتصوير الصرح من ناحية الالاميدا ، اما نصب أب الوطن ، برناردو اوهيجينز ، حيث

•• الالاميدا : الطريق المحفوف باشجار الحور

• اوهيجينز : بطل من ابطال التحرير في تشيلي ١٧٧٨ - ١٨٤٢ .

اوقدوا فيها الآن شعلة غاز دائمة « شعلة الحرية » . ثم انتقلوا الى تصوير الصرح الثاني ، حيث كانت ثلة منتخبة من حرس القصر ، بابهى زينة وعزة ، تقوم بطقوس تغيير النوبة والتي تقوم بها مرتين في اليوم ، دون ان تثير اهتمام العديد من الناس ، علماً بانها في حمى العظمة مثلما في قصر بكنجهام . في الجانب نفسه كانت الحراسة والمراقبة مشددة . لدرجة انه ما ان شاهد الشرطي الفريق الايطالي يجهز نفسه للتصوير ، حتى اسرع في طلب التصريح الخطي ، والذي اظهره لهم في جانب الالاميدا . لا يمكن الخداع كثيراً ، فقد ظهرت الكاميرا في كل مكان تقريباً في المدينة ، وتقدم بوليس يطلب التصريح ، في تلك اللحظة ، وصلت ، استمر اوغو المصور الفتى اللطيف ، والمنطلق كياباني مغامر ، في التصوير ، بينما جهز هويته في يده الاخرى دون ان يتنبه الشرطي لذلك .

على بعد اربعة مفارق من ذلك المكان ، تركني فرانكي قبل ذلك بربع ساعة ، على ان يعود ليأخذني وعلى بعد اربع مفارق الى الامام ، بعد ربع ساعة . كان صباحاً بارداً وضبابياً ، بكل أصالة خريف تلك الايام التي عهدتها ، كنت ارتجف من البرد ، رغماً عن المعطف الشتوي . حثت الخطا وانا اجتاز المفارق الاربعة لالتقى الدفء بين الجموع المستعجلة ، ثم تابعت خطواتي الحثيثة كي اعطي مجالاً للفريق ابين فيه نفسي . عندما عدت ، التقطت الصور لمروري امام المونيدا على عجل . بعد ربع ساعة ، للمم الفريق عدته وتوجه صوب الهدف التالي . وصلت حيث سيارة فرانكي في شارع ريكيلمي ، امام محطة مترو لوس هيرويس ، واقلعنا في الحال .

استغرق العمل في حديقة الفورستال اقل مما كان محدداً له ، لانني ما ان شاهدته ، حتى فهمت ان اهتمامي به لم يكن الا شيئاً يخصني .

في الواقع فهو مكان جميل جداً ، واحد الاماكن البارزة في سانتياغو ، فوق هذا وذاك فانه في تلك الجمعة الهادئة كانت الرياح تسقط الاوراق المصفرة ، اكثر ما كان يشد اهتمامي بحثي عن شريط ذكرياتي . هناك كلية الفنون الجميلة ، قدمت في اروقته اولى قطعي المسرحية ، وبالكاد آنذاك كنت قد قدمت من قريتي . ثم فيما بعد ، وقد اصبحت مخرجاً سينمائياً مبتدئاً ، كان عليّ ان اقطع على أقدامي الحديقة كل الايام تقريباً اثناء العودة للبيت ، على الضوء الآتي من بين الاشجار عند الغروب ، دوماً ولا زالت تتوقد في جوانحي مع ذكرى اوائل افلامي . لم يكن لدي المزيد مما اقله . كفانا ان قممت بمشوار قصير بين الاشجار التي كانت تتعري من اوراقها على صوت رذاذ المطر ، واستمرت في سيرتي حتى المركز التجاري حيث ينتظرنني فرانكي .

استمر الطقس صحواً وبارداً ، لأول مرة ارى سلسلة الجبال صافية منذ وصولي . فسانتياغو تقع في بطن الجبال ، ولهذا دوماً تتغطى بضباب التلوث . كما هي العادة كان هناك العديد من الناس في الحادية عشرة صباحاً في شارع استادو ، وكانوا يدخلون العرض الصباحي الاول في سينما ركس حيث كان يعرض فيلم اماديوس* لـ ميلوس فورمان . والذي كنت متلهفاً لمشاهدته ، ولكنه كان عليّ ان أبذل جهداً عظيماً حتى لا أدخل .

* اماديوس : فيلم يحكي سيرة حياة الموسيقار الشاب موزارت في فينا

« حماتي على زاوية الشارع »

لمحت العديد من معارفي ، في الايام السابقة ، وبينما كنا نصور : - صحفيين ، ساسة ، مثقفين . لا اذكر ان احداً منهم عرفني . وهذا ما عزز ثقتي . في تلك الجمعة ، حدث ما كان يجب ان يحدث عاجلاً ام آجلاً ، رأيت امرأة مميزة ، تمشي باتجاهي ، تلبس زياً قطنياً من قطعتين كريمي اللون ، وكأنها في الصيف ، عرفتها عندما شارفت على بعد أقل من ثلاثة أمتار . كانت ليو ، حماتي : كنت قد التقيتها في اسبانيا قبل أقل من ستة شهور ، كانت تعرفني جيداً ، لدرجة لا يصعب فيها ان تميزني عن قرب . دار في خلدي ان أقابلها . لكنني ساعتها عدت وتذكرت ان اتحكم بنبضات المشاعر الطبيعية ، كثيرة هي الناس التي عاشت في الخفاء ، بدون ان تواجههم مشاكل ، لكنهم عرفوا من الخلف ، كنت على ثقة كبيرة بان حماتي سوف تتكلم علي اذا ما اكتشفتني ، لولا انها لم تكن لوحدها ، كانت تتأبط ذراع أخت لها ، الخالة مينا ، والتي كانت تعرفني ايضاً ، كانتا تتحدثان بصوت منخفض ، لو كانت الظروف اخرى لما اكرثت ، حيث خفت من هول المفاجأة عليهما ، ليس بغريب ان تصيحاً لهول المفاجأة في وسط الشارع : « ميغيل ، بني ، أدخلت البلاد ، يا للعظمة » . أو أي شيء من هذا القبيل ايضاً . فان معرفة سر وجودي في تشيلي سيسهل عليهما خطراً كبيراً ، لا مجال امامي لعمل شيء سوى ان اواصل سيري ، وانظرها عن كثب وانا على اهبة الاستعداد لان أملص نفسي من الوضع اذا ما شاهدتني . بالكاد رفعت عينيها اثناء سيرها ، وتواجهت مع عيني

الثاقتين والمرعوبتين ، وهي تواصل حديثها مع الخالة مينا ، دارت نحوي ساهية لكنها لم تراني ، ثم تواجهنا عن قرب بحيث اشتممت عطرها ، وشاهدت عينيها البراقتين العذبتين ، وسمعت ما كانت تقوله : « مشاكل الابناء تزداد عندما يكبروا » ولكنها تابعت مسيرها مبتعدة .

قبل فترة حدثتها عن هذا اللقاء بالهاتف من مدريد ، ذهلت : لم اركز عقلي في ذلك الوقت ، كانت مصادفة بالنسبة لي ، شوشت افكاري ، تأزمت من انفعالاتي ، بحثت عن مكان ، افكر فيه ، ودخلت سينما صغيرة حيث كانوا يعرضون فيلم (جزيرة السعادة) وهو فيلم ايطالي اجدر بان يكون فليماً خلاعياً ، مكثت في الداخل عشر دقائق شاهدت رجالاً ، ممشوقي القوام جميلين ، ونساء جذابات ، بديعات التكوين ، يقفزون بسعادة الى البحر في يوم مشرق في مكان ما من الجنة . لم احاول ان ادقق في الفيلم ، اعطتني الظلمة مجالاً كي استعيد توازني بعد الانفعال ، عندها فقط فهمت الى اي مدى كانت ايامي السابقة اعتيادية وهادئة .

في الحادية عشرة والربع ، اقلني فرانكي من زاوية الشارع بين استادو والالاميدا الى حيث محطة التصوير القادمة : جسور المابوشو ، يخترق نهر المابوشو المدينة في مجراه الحجري ، عليه جسور فائقة الجمال ، وقد صمم تصميماً ساحراً من الفولاذ كي يحافظ عليه من الاعاصير . في ايام الجفاف ، وكما كان الوضع في السابق ، ينحسر مجراه ويصبح خيطاً من الطين السائل ، ويظهر في مركزه مستنقع بين براكيات بائسة ، في ايام المطر يفيض المجرى على ضفافه لكثرة الامطار الهائلة والمنسابة اليه من سلسلة الجبال المحيطة ، فتطفو البراكيات مثل قوارب في بحر من الطين .

في الاشهر التي تلت الانقلاب العسكري ، اشتهر نهر المابوشو في انحاء العالم ، وذلك لكثرة الجثث المنكل بها والتي كانت تجرفها مياهه ، بعد الهجمات الليلية المتكررة للقوى العسكرية على الاحياء الفقيرة : الاحياء السكنية الاكثر شهرة في سانتياغو ، لكن مأساة مابوشو ومنذ بضع سنين ، وعلى مدار العام ، تتمثل في صراع الجموع الفقيرة من الكلاب والعقبان ، على فضلات الاكل ، الملقاة في المجرى من الاسواق الشعبية . انه الجوع الذي قدمته الطغمة العسكرية وبوحي من مدرسة شيكاغو .

كانت تشيلي وحتى ايام حكم الليندي بلداً متواضعاً ، وبرجوازيته المحافظة آنذاك كانت تشعر بوطنيته ولديها قيمها . كي تقدم الطغمة العسكرية الازدهار والرفعة ، حلاً ، الغت التأمين الذي قام به الليندي ، وباعت البلد للرسميل الخاصة والاحتكارية الاجنبية . حصيلة ذلك كان الانطلاق في فتح الباب امام الكماليات ، وما يخلب الابصار ، وكذلك الاسفاف بالاهتمام بمظهر وزينة البلد وكأنها كرنفالاً احتفالياً ، كل ذلك لم يعد بالنفع على التشيليين .

في خمسة اعوام فقط تم استيراد حاجيات اكثر مما استورد خلال المائتي عام الفائتة ، حيث صرفت اموال التأمين ، وكذلك استهلك البنك الوطني أرضه ، وتراكت الديون الامريكية والخارجية ، انها الكارثة عند التسديد : فقد تهاوت الى الحضيض وعودات الدفع خلال الستة او السبعة اعوام في سنة واحدة . كانت الديون الخارجية على تشيلي في آخر عام حكم فيه الليندي أربعة مليارات دولار ، والآن فديونها تقريباً ثلاثة وعشرون ملياراً من الدولارات ، جراء التبذير ، قامت المعجزة العسكرية بجعل القلة الثرية اكثر ثراء ، وعمقت فقر غالبية التشيليين .

(الجسر الذي شاهد كل شيء)

جسر ريكوليتا على نهر المابوشو ، في وسط سوق الحياة والموت ، حبيب محاييد : مفيد للاسواق وللمقابر . خلال النهار يفتح الجنائزيون الطريق بين جمع الناس . في الليل ، وعندما لا يوجد حظر للتجول ، فهو طريق الدفانون الوحيد الى نوادي التانغو ، اماكن ذكرياتهم في الضواحي البائسة حيث هم ابطال الرقص فيها .

اكثر ما شد انتباهي تلك الجمعة ، بعد سنوات عدة ، دون ان اشاهد فيها الاضرحة ، تلك الاعداد الجمّة من العشاق التي تتسكع متأبطة بعضها على ضفاف النهر ، يمارسون الحب ويتؤدة ، حيث تباع احواض الزهور للاضرحة ، وأسفل الجسر ، دون اكرثا لمضي الزمن ، قبل سنوات عدة فقط شاهدت في باريس ممارسات كهذه امام اعين الملأ . بالمقابل ، تذكرت ما كانت عليه سانتياغو كمدينة لا تظهر مشاعرها بشكل جلي ، الآن اصطدم مع ممارسات جريئة والتي بدأت تضمحل شيئاً فشيئاً في باريس ، لدرجة اعتقدت انها ستختفي من العالم . لذلك تذكرت ما قاله لي شخص هذه الايام في مدريد : « الحب يتفتح في ازمة الطاعون » . قبل زمن الوحدة الشعبية ، كان الرجال التشيليون يرتدون بدلات قائمة ويحملون مظلات واقية من

المطر ، والنساء يتعلقن بالصرعات والموضات ، والمجلات الخاصة بـ « أوروبا » ، والاطفال بالبستهم كالارانب في عرباتهم ، طرح هذا ارضاً عندما اجتاحت رياح البيتلز ، وتغير الكثير ، فمال الناس الى الموضة التي لا تحدد الجنس . النساء قصصن شعرهن كالرجال ، وارتدين السراويلات الضيقة على الحوض ، والمتسعة عند الاقدام . ترك الرجال شعورهم تطول ، ايضاً كل هذا طرح ارضاً بسبب معاداة الدكتاتورية لكل ذلك . كل الجيل قص شعره قبل ان تقصه لهم قوات الجيش بالحرب ، كما وقد فعلوه في الايام الاولى للانقلاب العسكري . ذلك اليوم فقط وعلى جسور المابوشو خطريالي ان الشباب قد تغيروا . جيل الشباب الحديد تسلم المدينة بعد جيلي . اطفال العشر سنوات عند خروجي ، بالكاد كانوا قادرين على تقدير عمق مأساتنا . الآن هم في الثانية والعشرين . لاحقاً اكتشفنا وقائع جديدة عن الطريقة التي يمارس فيها هذا الجيل الحب على الملأ . كم تغيرت طريقة حياتهم وتفكيرهم عن الطريقة السابقة .

انهم هم الذين يحددون لهم اهواءهم ، طريقة حياتهم ، مفاهيمهم للحب ، للفنون ، للسياسة ، في وسط وغمرة فساد الدكتاتورية ، لا توجد وسيلة تمكن من السيطرة عليهم . تسمع الموسيقى باعلى درجة وفي جميع الانحاء - حتى في عربات البوليس المصفحة يسمعون دون ان يعرفوا ماذا يسمعون - اغنيات كوية لسيلفيور وذوريفث* ، وبابلو ميلانيز . الاطفال الذين كانوا في المدرسة الابتدائية في سنوات سالفادور الليندي ، هم الآن قادة المقاومة ، وهذا ما تبين لي ايضاً ، وتأكدت منه ، وفي الوقت نفسه قض ذلك مضجعي ، وللمرة الاولى ساءلت نفسي اذا ما كان حصاد ذكرياتي يفيد في شيء ما ، حرك الشك في دقائق من الشجن ، كي انهي برنامجي اليومي ، قمت بجولة سريعة في تلة

سان كريستو بال ، ومن ثم صوب كنيسة سان فرانسيسكو ، وقد تذهبت حجارتها مع الغروب . ثم طلبت من فرانكي ان يأتي بحقيبة سفر من الفندق ، وان يعود ليأخذني بعد ثلاث ساعات امام مدخل سينما ركس ، حيث دخلت لمشاهدة عرض فيلم أماديوس . وطلبت منه ان يخبر ايلينا باننا سنغيب عن الانظار لثلاثة ايام لا اكثر . ذهبت مخالفاً للقواعد المدرسة ، فعلى ايلينا ان تلازمي في كل اللحظات والامكنة ، لم استطع تجنب ذلك .

سافرت برفقة فرانكي الى كونسبسيون دون ان ابلغ احداً ، في قطار يقلع في الواحدة ليلاً .

الفصل الخامس

رجل يحترق أمام الكاتدرائية

كان الهاما مفاجئا لي ، وبدون شك كنت محقا في ذلك ، فقد كان يبدو لي ان القطار هو الوسيلة الاكثر أمنا للسفر داخل تشيلي ، حيث لا توجد نقاط تفتيش تعترضنا ، كما في المطارات ، او على الطرق الخارجية ، وايضا حتى نستغل عدم قدرتنا على الاستفادة من الليل بسبب حظر التجول في المدن ، فرانكي لم يكن مقتنعا بذلك ، فهو يعرف بان اكثر وسائل النقل مراقبة هي القطارات ، لكنني تصلبت في رأيي واخذت أبين له ولهذا السبب فهي أكثر أمنا ، حيث لا يخطر ببال اي شرطي بان متخفيا يركب قطارا عرضة للمراقبة ، كان فرانكي يعتقد وعلى العكس مني ، ان الشرطة تعرف بان رجال العمل السري تسافر في القطارات ، لانه يعتقد بان المناطق الاكثر أمنا هي الاكثر عرضة للمراقبة ، وكذلك صحيح ان تاجرا ثريا ، ذا مصالح على درجة كبير في اوروبا ، على استعداد للسفر في القطارات الفخمة الاوروبية ،

ولكن ليس بواسطة تلك القطارات البائسة الخاصة بالمقاطع التشيلى .

أقنعت بحجتي ان طائرة كونسبسيون لا تصلح ، لاننا لا نعرف اذا ما ستتمكن من الهبوط بسبب الضباب ام لا ، وامامنا مقابلة او جزء هام من خطة العمل .

في الحقيقة فضلت القطار على جميع الاحوال بسبب خوفي الذي لا علاج له من السفر في الطائرة . .

في الواحدة ليلا ، ركبنا القطار في (المحطة المركزية) ، المصممة من الفولاذ ، ولها نفس الجمال الاخاذ لبرج ايفل ، نزلنا في غرفة مريحة ، نظيفة في القاطرة المخصصة للنوم ، كانت معدتي خاوية من الجوع ، فالشيء الوحيد الذي تناولته منذ الافطار كان قطعتي شوكولاته بيعت لي اثناء العرض بينما كان الفتى موزارت يؤدي قفزات جبار امام امبراطور النمسا ، اوضح لنا المفتش انه يمكننا فقط تناول الاكل في عربة الطعام . والتي لم تكن على اتصال مع قاطرتنا بسبب التصميم الاساسي ، المفتش نفسه اعطانا حلا : علينا الذهاب الى المطعم قبل ان يقلع القطار ، ان نأكل كما نرغب ، وان نعود الى غرفة النوم ساعة بعد ذلك خلال توقف القطار في رانكاغوا . وهذا ما قمنا به بكل سرعة ، حيث دق زامر منع التجول وراح المفتشون يحثوننا بصراخهم « هيا بسرعة ، يارجال بسرعة اننا نهتك القانون » . لم يكن يهم حرس محطة رانكاغوا الناعسين فرائصهم ترتعد من البرد ، هتك ذلك القانون العسكري في شيء .

كانت محطة باردة تجمد الدم في العروق ، فارغة لا روح فيها تلحفها ضبابية كشيخ هائل ، اشبه بالمحطات في الافلام التي تصور المانيا النازية . فجأة وبينما كان المفتشون ينادوننا ، تقدمنا على طول الطريق فتى المطعم بسترته الكلاسيكية البيضاء ، يحمل في راحة يده

صحن ارز مع البيض المقلي ، ركض خمسين مترا تقريبا بسرعة فائقة دون ان يفقد الصحن نوازنه السحري ، وناوله من نافذة القاطرة الى احدهم والذي بدون شك دفع له من اجل ذلك ، وقبل ان نصل غرفتنا كان قد عاد الى المطعم . قطعنا حوالي الخمسمائة كيلومتر حتى وصلنا كونسبسيون في صمت مطلق ، كما لو ان حظر النجول كان اجباريا ليس على المسافرين في ذلك القطار الناعس وانما على جميع مخلوقات الطبيعة .

احيانا كنت اطل من النافذة ، ما كنت استطيع مشاهدته فقط خلال الضباب محطات فارغة واسلاك شائكة على طوال السكة ، لا شيء خلف الاسلاك ، لا بشر ، لا ازهار ، لا حيوانات : لا شيء . تذكرت نيرودا « في كل الامكنة خبز ارز ، في تشيلي اسلاك ، اسلاك اسلاك » في السابعة صباحا ، وصلنا كونسبسيون وقد بقيت امامنا اراض عديدة محاطة بالاسلاك .

بينما كنا نقرر ما ستكون عليه خطوتنا القادمة ، فكرنا في مكان نحلق فيه ذقوننا ، بالنسبة لي لم تكن بمشكلة ، فقد استغللت ذلك وتركت الفرصة لذقني كي تنمو مرة اخرى ، السيء في مظهرنا اننا نظهر في عيون رجال الشرطة كفارين من وجه العدالة ، في مدينة على بينه منها كل التشيليون حيث واكبت احداث وافعال هامة من النضال الاجتماعي . هنا ولدت الحركة الطلابية في الستينات ، هنا لقي سلفادور الليندي دعما كبيرا له في حملته الانتخابية ، هنا بدأ الرئيس غابرييل غونثالث فيديلا بحملته القمعية الدموية عام ١٩٦٤ ، قبل انشاء معسكر اعتقال بيساغوا بقليل ، حيث تدرب على فنون الارهاب والقتل فيها ضابط شاب يدعى اوغوستو بينوشيت .

زهور دائمة في ساحة سيباستيان ، اسيفيدو

من نافذة التاكسي الذي اقلنا نحو مركز المدينة ، ومن خلال الضباب الصقيعي والكثيف ، شاهدنا الصليب الوحيد امام مدخل الكاتدرائية ، وباقات من الورود الدائمة التي تضعها ايد مجهولة . اشعل سيباستيان اسيفيدو ، عامل مناجم الفحم النشيط ، النار في نفسه في هذا المكان ، قبل عامين ، بعد ان حاول مرات وبدون نتيجة ، ان يقوم احدهم ويتدخل لدى دائرة المخابرات ويضع حدا لتعذيب ابنه ذي الاثنيين والعشرين عاما وابنته ذات العشرين عاما ، والذين تحتجزهم السلطات تحت حجة حيازتهم غير الشرعية للسلاح . لم يستجد سيباستيان اسيفيدو وانما حذر . بينما كان المطران في رحلة ، تحدث مع مسؤولي الابرشية . وتحدث مع الصحفيين المهمين في البلاد ، ومع قادة الاحزاب السياسية ، ومع كبار رجال التجارة والصناعة ، تحدث مع كل من سمع له ، وبضمنهم مسؤولون في

الدولة ، للجميع قال نفس الشيء : « اذا لم تعملوا شيئا توقفوا فيه استمراهم بتعذيب اولادي ، فسأصب البنزين على نفسي واشعل فيها النار امام الكنيسة » . البعض لم يصدق ، آخرون وقفوا حيارى امام ما يفعلون ، وفي اليوم نفسه الذي حدده ، تترس امام الكنيسة ، وصب على نفسه جالونا من البنزين وحذر الجميع الذي احتشد في الشارع بانه اذا ما قطع احدهم الاخط الاصفر فسوف يشعل النار . لم تجد نفعا تلك التوسلات ، لم تنفع الاوامر ، وكل التحذيرات ، التي حاولت ايقافه عن توضيحته ، قطع شرطي الخط ، وتحول سياستيان اسفيديو الى السنة من النار البشرية . عاش سبع ساعات وبدون ان يتألم ، قانعا بما قام به ، رد الفعل الجماهيري كان كبيرا ، لدرجة ان الشرطة وجدت نفسها مرغمة على ان تسمح لابنته بان تزوره في المستشفى قبل الموت . وكي لا تراه ابنته في هذه الحالة الفظيعة سمحوا لها فقط بالحديث معه عبر (السهامة) .

وكيف اعرف انك كانديلاريا !!

قالت له عندها اسم التحبب الذي كان يناديها به وهي طفلة . وكما طلب الاب الشهيد في حياته ، فقد اخرج الاخوان من غرف التعذيب ، وسلمها الى المحاكم المدنية . منذ ذلك الحين اطلق سكان كونسبسيون اسما سريا على مكان التضحية : ساحة سياستيان اسفيديو .

ما اصعب ان تحلق في كونسبسيون

كنا نحفل بمخاطر نحن في غنى عنها ، وقد بدا وكأننا متنكران في زي برجوازيين ولكن بدون حلاقة ، في السابعة صباحا في هذه القلعة التاريخية ، ايضا فان الكل يعرف هذه الايام ان سيدا قائما على الدعاية ، مع مسجلة صغيرة لتسجيل افكاره ، يحمل في حقيبة يده آلة حلاقة الكترونية تسمح له بالحلاقة في الطائرات وكذلك في القطارات وحتى في الباصات ، وقبل الوصول الى اي اجتماع عمل .

المشكلة الكبيرة في كونسبسيون ، كانت البحث عن حلاق ، يوم السبت وفي السابعة صباحا .

المحاولة الاولى مع صالون الحلاقة الوحيد الذي فتحت ابوابه في تلك الساعة قرب ساحة السلاح ، على الباب اعلان (للجنسين) . كانت هناك فتاة تكنس الصالون ، لا زال النعاس في عينيها ، وشاب في عمرها ، يرتب الزجاجات على الرف امامه .

قلت - اريد ان أتزين .

قال الرجل : لا ، لا نقوم بهذا العمل هنا .

- اين يقومون به .

قال تابع مسيرك الى الامام - هناك العديد من دكاكين الحلاقة . قطعت مفرقا ، حيث تركت فرانكي ليستأجر سيارة ، اصطدمت بشرطين يسألانه عن الهوية ، طلباها مني ايضا ، لكن لم تحدث اية

مشكلة ، على العكس من ذلك بينما كان فرانكي يستأجر السيارة ،
رافقني احدهما وسار بي مفرقين حتى صالون للحلاقة كان يفتح ابوابه ،
وودعني مصافحا يدي .

مثله مثل الصالون الاول ، على الباب اعلان : للجنسين ، في
هذا الصالون كان رجل في الخامسة والثلاثين وفتاة اكثر شبابه .
سألني عما اريده .

قلت له - اتزين .

نظر كلاهما الي بدهشة .

قال - لا يا رجل ، لا نقوم بهذا العمل هنا .

قالت الفتاة : هنا للجنسين .

قلت لهم - حسنا - بما انه للجنسين فيمكن الحلاقة لواحد .

قال هو . لا يا رجل - عندنا لا .

ادار كلاهما لي ظهره ، فتابعت سيري خلال الشوارع غير
المشمسة خلال الضباب الكثيف ، لم تدهشني كثرة صالونات الجنسين
التي كانت في كونسبسيون فحسب ، ولكنني لم اجد احد يخلق لي ذقني .
كنت شاردا في ذلك ، عندما اقترب مني طفل في الشارع وسألني :
- يا سيد اتسير باحثا عن شيء .

قلت له - نعم - ابحث عن صالون حلاقة ، ان لا يكون

للجنسين ، فقط للرجال ، مثل تلك التي كانت في السابق .

رافقني الى صالون حلاقة شعبي على الطراز القديم ، بابه مطلي
بالاحمر والابيض ، فيه مقاعد دوارة كتلك التي كانت في ايامي . كان
هناك مسنان يرتديان مراييل وسخة يقومون على حلاقة زبون واحد .
احدهم يقص الشعر والاخر كان يزيل خصيلات الشعر الساقطة على
وجهه واكتافه بفرشاه . في الداخل كانت تفوح رائحة زيوت الشعر

والكحول المعطر . اشبه بمحل العطار ، روائح زمن الطفولة ، تنبهت الى انني قلما تعاطيت مع هذه الروائح في الصالونات السابقة .

قلت - ايمنك ان تزيني .

نظر الثلاثة باستغراب . سألني الرجل المسن والفرشاة في يده عما يدور في خلد الثلاثة .

- من اين حضرتك ؟

قلت بدون تفكير . تشيلي ، تداركت بسرعة : لكنني اوروغواني لم ينتبهوا الى ان تداركي كان اسوأ من خطأي ، نبهوني الى ان كلمة تزين لم تعد تستخدم في تشيلي منذ عدة اعوام وانما حلاقة . ربما لم يفهم الحلاقون الشباب في صالونات الجنسين لهجتي التشيلية القديمة التي عفا عليها الزمن ، تمسسا لاستقبال ات من ايام عزهم . اجلسني الحلاق صاحب الفرشاة في مقعد ، وطوق رقبتني بالشرشف ، يبدو عليه ان قضاها تعيسا ، كان طويلا ، طري البشرة ، اشيب الرأس ، يبدو انه لم يخلق ذقنه منذ ثلاثة ايام مثلي .

سألني : اتريد ان تخلق بهاء ساخن ام بارد .

بالكاد كان يستطيع ان يقبض على الموسيقى في يده المرتعشة .

قلت له : بهاء ساخن ، طبعاً .

قال : اذاً يا للمصيبة - لانه ليس لدينا ماء ساخن هنا . فقط ماء

بارد عندها عدت ادراجي حيث اول صالون صادفته وعندها قلت لهم انني اريد ان اخلق - لاتزين . . استقبلوني في الحال ولكنهم اشترطوا علي حلاقة شعري ، سريعاً ، وافقت ، جهز الشاب والفتاة نفسيهما وبدأوا يقومون بطقوس حرفتهم ، وضعت الفتاة المنشفة حول رقبتني ، وغلست رأسي بهاء بارد - حيث في هذا الصالون لم يكن يوجد ماء ساخن - وطلبت مني ان اشير عليها بطريقة الحلاقة اهي رقم ثلاثة ام

اربعة ام خمسة ، او ان تتعاطى بطريقة تخفي بها الصلعة ، تابعت على نفس المنوال ثم توقفت فجأة وهي تنشف لي وجهي . وقالت تخاطب نفسها « يا للعجب » فتحت عيني على اعلى ماقيها : ماذا ؟
كان ذهولها كبيرا .

قالت - حواجبك منتوفة .

تنغصت لاكتشافها ذلك ، قررت ان امازحها بصفاقة ، نظرتها
برخاوة :

- الديك موقف من المخنثين ؟

احمرت خجلا ، ونفت بحركة من رأسها .

ثم أفرغ الحلاق وقته لي ، ورغما عن تحذيراتي وتوجيهاتي له . فقد
قص شعري اكثر من اللازم ، وصففت شعري بطريقة اخرى . تركني
وقد فرغ من خلاقتي لاعدود مرة اخرى ميغيل ليتين . كان ذلك منطقيا ،
فالملكياجي غيرو عن قصد اتجاه شعري الطبيعي . وهنا لم يقم حلاق
كونسبسيون سوى باعادة وضعية شعري على ما كانت عليه في مكانها .
لم يثر ذلك اهتمامي كثيرا ، فقد كان بامكاني اعادة تصفيف شعري
بالطريقة الاخرى . وهذا ما عملته . دون ان يكلفني جهدا معنويا
كبيرا ، صحيح انه ضد طموحي ، بان ارى نفسي ، انا في مدينة ضبابية
نائية ، والتي على جميع الاحوال لن يعرفني احد فيها ، فرغت من قص
شعري ، قادتني الفتاة الى سدة خلف المحل ، فيها جميع التجهيزات ،
كما لو كان ذلك محظورا ، قدمت لي ماكينة حلاقة وشغلتها امام المرأة ،
دون الحاجة ولحسن الحظ للماء الساخن .

« جنة للحب في جهنم »

استأجر فرانكي سيارة ، وتناولنا الفطور في محل للمرطبات ، كان فنجانا باردا من القهوة ، حتى هناك لا يوجد ماء ساخن ، وتوجهنا الى مناجم الفحم لوتا وشواجر ، عبر جسر يويو الكبير على مجرى اكبر نهر في تشيلي ، والذي تصب فيه مياه معدنية ناعسة ، وبالكاد كنت اشاهدها من خلال الضباب . وصف الكاتب التشيلي بالدوميروليلو ، في القرن الماضي ، مناجم وحياة عمالها بكل تفاصيلها ، لا زال ما وصفه شاهدا على ما يجري حاليا . اشبه بالحياة في انكلترا ، منذ مائة عام . نفس منظر الضباب المشيع بدخان الفحم ، ونفس ظروف العمل قبيـل الثورة الصناعية .

كانت هنالك ثلاثة مراكز مراقبة للبوليس قبل الوصول . اكثرها صعوبة ، وكما توقعنا اولها ، لذلك استنفذنا هناك كل عتادنا اللغوي فعندما استفسروا عموا سنفعله في لوتا وشواغر ، ذهلت من سيولة اجابتي . قلت اننا اتينا لمشاهدة الغابة ، وحيث انها من اكثر الغابات روعة في امريكا ، باسجار الاروكاريا الهرمة العملاقة وايضا لمشاهدة تماثيلها التي تحيطها الديكة الرومية والاوز ذو الرقبة السوداء . وان هدفنا ان نستخدم المكان لالتقاط فيلم دعائي سيوزع في انحاء العالم يظهر عظمة الاروكاريا ، عن عطر جديد سيعمد بهذا الاسم تخليدا لذلك المكان الشاعرى ، لا يوجد شرطي تشيلي يحتمل تفسيرات طويلة ،

وبالذات اذا ما كانت تتعلق بالحديث بشاعرية عن جمال البلد رحبوا بنا ، وابلغوا الحاجز الثاني . لذلك فهناك لم يفتشوا عن هوياتنا وانما السيارة وحقائبنا ، اثارت اهتمامهم كاميرا سوبر - ٨ - علما بانها ليست للحرفة ، حيث ان التصوير حيث المناجم كان يستدعي الحصول على تصريح خطي وضحنا لهم اننا فقط نريد الوصول حتى غابة التماثيل والاوز ، في اعلى الجبل وتصنعت قولي بارستقراطية اشمز منها :
لا تهمنا الفقراء .

فحص الشرطي بدون اهتمام كل شيء كان يعثر عليه ، رد احدهم دون ان يتوجه بنظراته نحوي : في هذا المكان ، كلنا فقراء .
اكتفوا بالتفتيش وصلنا الغابة ، بعد ذلك بنصف ساعة ، بعد ان اجتزنا منعطفات ملتوية ضيقة صاعدة ، مررنا على الحاجز الثالث لم تعترضنا اية مشكلة ، مكان يطير فيه اللب ، اخاذ ، انشأ هناك تاجر النبيذ دون ماتياس كوسينيو ، للمرأة التي عشقها صرحا بديعا ، احضر شجارا فريدة من كل انحاء العالم من اجل اسعادها ، جلب حيوانات خرافية غريبة ، وتماثيل لالهة فائقه الجمال فيها اشكال الروح المختلفة ، السعادة ، الحزن ، الحنين ، الحب ، في داخل الغابة كان الصرح ، اشبه بها في حكايات الخوريات ، ذا شرفات تطل على المحيط الهادئ طرف العالم الاخر .

قضينا هناك الصباح باكملة نلتقط صورا بالسوبر - ٨ - للاماكن التي سيأتيها الفريق السينمائي للتصوير حالما يجهز التصريح ، ما ان بدأنا نلتقط صورا للمكان ، حتى اقترب منا حارس ليمنعنا من ذلك ، رددنا عليه حكاية فيلم الدعاية للعالم ، اصر على اوامره لكنه عرض علينا مرافقته الى الاسفل ، حيث كانت المناجم هناك ونطلب تصريحاً بذلك من المسؤولين .

قلت له : لن نصور اكثر من ذلك بعد الان ، واذا اردت ان تتأكد من صحة اقوالنا فلتبقي معنا وتتأكد .

قبل ذلك ، وعدنا لنطوف بارجاء الغابة معه ، كان في ريعان الشباب ذا وجه حزين . واصل فرانكي الحديث معه . حيث اثرت ان لا اتحدث معه اكثر ، حتى لا اقع في الخطأ ، بلهجتي الاوروغوائية السيئة . اجتاح الحارس في لحظة ما الرغبة في التدخين . وناولناه كل سجائرننا . عندها تركنا لوحدا ، واستمررنا في التصوير على هوانا . ليس في الاعلى حيث الغابة فحسب وانما في الاسفل حيث المناجم . وضعنا النقاط التي كانت تهمني كثيرا ، وزوايا العدسات ، المسافات ، كل حيز الغابة الكبير . ومن ثم البؤس في الاسفل ، حيث يعيش اولئك البؤساء من عمال المناجم والصيادين . انها الحقيقة كانوا اشبه بالدمى والتماثيل الحقيقية .

البلر الذي يأوي طيور النورس

عندما هبطنا وقد انتصف النهار ، كانت القوارب التي تغامر يوميا ، تبخر في البحر المخيف حتى تشارف على مقربة من جزيرة سانتا ماريا ، في البحر ذي الامواج السوداء العالية ، وكانت تبخر عائلات باكملها محملة بمتاعها وحاجياتها وحيواناتها فيها . تدخل مناجم الفحم تحت البحر في انفاق عميقة ، حيث يعمل الاف العمال خلال اليوم في ظروف سيئة . حول مداخل الانفاق في الخارج كان ينبش مئات الرجال والنساء مع اطفالهم بايديهم الارض مثل القنفذ . باظفارهم يقتلعون فضلات الفحم من المناجم .

الهواء في الاعلى حيث الغابة ، كان نقيا وصافيا ، حيث اكسجين الاشجار ، اما في الاسفل كانوا يتنفسون الغبار الكربوني المنبعث في الضباب ، الذي يؤذي التنفس ويلتصق بالمجري التنفسية . من الاعلى يشاهد البحر يرونقه الخرافي ، وفي الاسفل ضوضاء وجلبة كبيرة . تلك كانت معقلا سياسيا ، متحمسا لسلفادور الليندي ، عام ١٩٥٨ حدث هناك ما عرفت به منذ ذلك الاوان (مسيرة الفحم) ، عندما اجتاز عمال المناجم جسر بيو بيو في مظاهرة حاشدة متلاحمة ، قائمة ، صامئة ، اكتسحت مدينة كونسبسيون رافعة اعلاما ويافطات ، مصرة على اسقاط الحكومة ، سجل المخرج التشيلي سيرجيو برافو فصول ذلك في فيلم (رايات الشعب) ، وهو احد روائع السينما الديمقراطية

التشيلية ، كان الليندي هناك ، وعندها تلقى التصميم الحقيقي للجماهير على مساندته . كانت اولى زيارته بعد ان اصبح رئيسا الى عمال المناجم حيث تحاور معهم في ساحة لوتا . كنت احد الذين عملوا معه . لفت انتباهي رجل مثله ، في الستين من عمره ، وبعنفوان الشباب ، قال من اعماقه يومها : « ولى الشباب ، انا اليوم عجوز » . تحدث معه عمال المناجم الصغىرو الاجسام ، والمهشمون ، المتوحدون ، يخدرونهم بالوعود التي لا تعرف الوفاء خلال سنوات عدة ، تداولوا الحديث معه دون تحفظات ، وانبروا للسعي حتى النهاية لانتصاره ، اولى قراراته التي اتخذها منذ تسلمه السلطة ، وكما وعد عمال لوتا وشواجر ، ذلك المساء كان تأميم المناجم ، وكان اول اعمال بينوشيت اعادة تملكها من جديد ، كما عمل ايضا نفس الشيء مع المقابر ، القطارات المرافىء ، وحتى اشغال جمع النفايات .

انتهت خطة التصوير في المناجم في الرابعة مساء ، بدون ان تصدنا عن ذلك اية قسوة عسكرية او مدنية ، عدنا الى كونسبسيون عن طريق تالكاهوانو ، كان من الصعب الاسراع في السيارة ، نظرا للاعداد الضخمة من عمال المناجم يخترقون الضباب عائدين الى اكواخهم ، يجرون عربات يد فيها قطع من الفحم الذي جمعه من فضلات المناجم رجال اقزام كالاشباح ، نساء نحيفات ، لكن يتمتعن بقوة الاجسام يحملن اكياسا كبيرة من الفحم ، مخلوقات تظهر فجأة في غياهب الظلمات كاحلام مفزعة ، وبالكاد كانت تكتشفها اضواء السيارات .

في تالكاهوانو ، يقع مقر كلية ضباط الصف البحرية ، حيث الميناء العسكري الرئيسي في تشيلي والقاعدة الاكثر أهمية ، اشتهرت في الايام الاولى التي تلت الانقلاب العسكري كونها نقطة التجميع

الاجبارية للسجناء السياسيين الذين كانوا ينقلون الى جهنم جزيرة داو
سون .

تعج الشوارع بعمال المناجم بالبستها البالية المتسخة ، ويشاهد
المكلفون العسكريون يقومون بالاستعراض بالزي البحري ، وليس من
السهل استنشاق قطرات الهواء الملوث بالرائحة المؤذية التي لا تطاق
والمنبعثة من مطاحن الاسماك ، وقطران القواعد ، قاذورات البحر .
وعلى عكس ما افترضناه ، لم يعترضنا اي حاجز عسكري . غالبية
المنازل كانت مظلمة ، اضاء خافتة كانت تتناهى اليها من بعض
النوافذ ، كانت تبدو كقناديل من العهود الماضية .

لم نكن قد تناولنا شيئاً بعد القهوة الثلجة صباحاً . وهكذا دلفنا
مطعماً دون ان نخطط له ، يشع منه ضوء ، اشبه بالاساطير عندما
اكتشفنا انه يعج بالنوارس التي كانت تدلفه من شرفاته المطلة على
البحر ، لم اشاهدها ابدا بهذه الكثرة ، ولا حتى كيف تندفع من الظلمة
لتحوم فوق رؤوس الزبائن الموتورين ، تطير كما لو كانت عمياء ، او
بلهاء ، ترتطم في كل الارحاء ، وتثير ضجة اشبه بضجة مركب وصل
المرفأ ، افطرنا وقت العشاء ، على الصدف البحري التشيلي ، والذي
يعيش في مياه البحر المحاذية لليابسة في الاعماق الباردة منذ عصور ما
قبل التاريخ ، ثم عدنا الى كونسبسيون .

استطعنا ان ندرك القطار الى ستيياغو . وقد بدأت تدور
عجلاته ، حيث اتنا وجدنا المكتب الذي استأجرنا فيه السيارة مغلقا ،
واضطربنا ان نهدر اربع ساعات في البحث عن شخص يسلم السيارة
للمكتب .

الفصل السادس

الليندي ونيرودا :

«خالدان في الذاكرة لا يموتان أبدا»

الاحياء السكنية الفقيرة الضخمة في المدن التشيلية الكبيرة ،
عبارة عن اراض مشاعية دون ملاك - اشبه بالقصبة في المدن العربية - ،
يمكن تمييز ساكنيها ببشرتهم المحروقة السمراء ، وقد غير البؤس من
لونهم . نمت في اوساطهم ثقافة الازقة ، تراجع الشرطة والجيش الكثير
من حساباتهم عند المغامرة بدخول تلك الازقة ، ففي هذه الاحياء
المتراصة الفقيرة كخلية نحل ، يمكن اخفاء فيل فيها دون ان يترك
اثرا ، وكذلك حيث يجب ان يتهياؤوا لمواجهة وسائل المقاومة غير المتوقعة
في الرد على اجهزة القمع .

دوما كانت هذه الاحياء وعبر التاريخ تلعب دورا انتخابيا هاما
وفعالا خلال المراحل الديمقراطية ، وكنت تؤرق الحكومات ، كان مهما
بالنسبة لنا اخذ صورة حقيقية توضح النفسية والوضع الجماهيري
وعلاقته مع الدكتاتورية . والى اي مدى لا زالت حية في الذاكرة صورة
سالفادور الليندي .

المفاجأة الاولى كانت التأكد من ان الاسماء الشهيرة للقادة في المنفى ، شخصيات المجد السابق والتي ليس لها علاقة كبيرة بما يجري حاليا ، لم تكن لتجول كثيرا في خاطر الجيل الجديد الذي يرهق الدكتاتورية اليوم بمواجهاته العنيفة .

رغما عن ان ذلك قد يبدو متناقضا ، ولكن ذلك في حقيقة الامر يعني الفشل الاكبر للنظام العسكري . فما ان تسلم الجنرال بينوشيت الحكم ، حتى أعلن عزمه على البقاء في الحكم حتى يجتث من ذاكرة الاجيال اللاحقة اخر صوره للنظام الديمقراطي . ساعتها لم يتصور ان نفس نظامه سيصبح ضحية لعزمه هذا .

قبل فترة قليلة ، وقد فقد قدرته على السيطرة على خطر الفتية الذين يهاجمون قوات القمع بالحجارة في الشوارع ، وكذلك الذين يقاتلون بالسلاح سرا ، يناضلون لاجل اقامة نظام سياسي لا يعرفه الكثيرون مهم . صرح الجنرال بينوشيت من اعماقه بان تفعل الشبيبة ما شئت ، لانها لا تعرف شيئا عما كانت تعنيه الديمقراطية في تشيلي .

يمتلك اسم سالفادور ألييندي الماضي ، ولا زال صدى ذكره يتكرر وبشكل خرافي في الاحياء الشعبية ، وهذا ليس من الهمية بمكان ، امام الظروف التي يعيشونها ، ونضج وعيهم في مواجهة الدكتاتورية ، تصوراتهم ووسائلهم في النضال ، فاجأونا باجاباتهم وصراحتهم ، ولكن الليندي كان دوما في الذاكرة . شهود وفي امكنة عدة بدوا وكأنهم شخص واحد : « دائما في الاقتراعات صوت له ، ليس لشخص اخر أبدا » ، وهذا يفسر لماذا كان الليندي مرشحا ولمرات عدة اثناء حياته وقبل ان يفوز بالرئاسة ، من المناسب قوله ، انه يجب ان يكتب على شاهد قبره : « هنا يرقد سالفادور الليني ، الرئيس القادم لتشيلي » . رشح اربع مرات حتى انتخب ، قبل ذلك كان نائبا وعضوا

في مجلس الشيوخ ، طوال الانتخابات المتلاحقة وايضا اثناء حقيته
البرلمانية ، التي لم تتوقف ، كان المرشح المفضل لغالبية الولايات في طول
البلاد وعرضها . من حدود البيرو وحتى باتاغونيا كان يعرف بعمق ،
مؤيديه ، ثقافتهم المختلفة ، الامهم ، احلامهم ، كما وعرفته الجماهير
أيضا وعن كذب بعظمه ولحمه ، على عكس الكثير من الساسة الذين
كانوا يشاهدون فقط في الصحافة او التلفزيون ، او يسمعون عبر
الراديو ، دخلت سياسة الليندي البيوت ، وتنقلت من بيت الى بيت .
كانت على اتصال مباشر ، دافئ ودائم مع الناس ، كما لو كان : طبيب
العائلة .

كان مثابراً في عمله السياسي ، يفهم روح البشر ، كان ديمقراطيا
لدرجة . ووصلته به الامور درجة عسيرة بات من الصعب حلها . بعد
ان انتخب رئيسا سار رجل امامه في مظاهرة يحمل يافطة فريدة (هذه
الحكومة من الخرى ، لكنها حكومتي) . نهض الليندي ، وصفق ثم
هبط ليشد على يده . اثناء تجوالنا الطويل في ارجاء البلد ، لم نجد مكانا
لا يوجد فيه اثر له . دوما كان هنالك شخص شد على يده ، او اصبح
عرابا لابنه ، او عالج احدهم من سعلة خبيثة ، باعشاب من باحة
منزله ، او حصل له عملا ، او هزمه في لعبة الشطرنج .

كل شيء لمسه تحول الى اثر قيم . ما كنا لا نتوقعه ، ان اشاروا
الى كرسي حافظوا عليه اكثر من الكراسي الاخرى : « هنا جلس مرة ،
او اظهروا لنا شيئا « اهداه لنا » ، قالت لنا فتاة في التاسعة عشرة من
عمرها ، لديها طفل وكانت حاملا للمرة الثانية - « اعلم ابني دائما من
كان الرئيس ، رغبا عن انني بالكاد عرفته ، لانني كنت في التاسعة
عندما رحل » . سألناها عن ذكرياتها التي تحتفظها عنه ، فقالت « كنت
مع ابي ، شاهدته يتحدث من شرفه ويلوح بمنديل ابيض » . في بيت

علقت فيه صوره عذراء الكارمن ، سألنا صاحبتة ، اذا ما كانت من انصاره ، فاجأتنا : « لم اكن كذلك ، اما الان فنعم » . عندها رفعت صورة العذراء ، لتكشف لنا خلفها ، عن لوحة لاليندي . كانوا يبيعون خلال فترة رئاسته في الاسواق الشعبية ، صورا له نصفية ، يهتمون الان بها كثيرا في الاحياء السكنية ، حيث يزينونها باواني الزهور والشموع ، يتردد صدى ذكراه ، عند المسنين الذين صوتوا له اربع مرات ، وعند الذين صوتوا له ثلاثا ، وعند اولئك الذين انتخبوه ، وعند الاطفال الذين يعرفونه عبر الذاكرة . العديد من النساء اللواتي حادثته يكررن نفس العبارة : « الرئيس الوحيد الذي تحدث عن حقوق المرأة ، كان سالفادور الليندي » . بالكاد كانوا يذكرون اسمه وانما « الرئيس » . كما لو كان ولا زال الرئيس الاوحد ، وكأنها ينتظرون عودته ، في المناطق الفقيرة لم تعلق في الذاكرة صورته ، وانما عظمة تفكيره الانساني . كانوا يقولون : « لا يهمننا البيت ولا الطعام ، وانما ان يعيدوا الينا الكرامة » . ويردون « ما انتزعوه منا : حرية الصوت والتصويت » .

« الليندي ونيرودا خالدان لا يموتان ابدا »

اكثرا ما تستشف شعبية الليندي في البارائيسو ، ذلك الميناء الصخب ، حيث ولد ، وترعرع ، وتهايا للحياة السياسية ، في بيت لاسكافي فوضوي ، حيث قرأ اوائل الكتب النظرية ، وتعلق بشغف بلعبة الشطرنج . كان جده ، رامون الليندي ، مؤسس اول مدرسة مذهبية في التشيلي ، ولاول رابطة ماسونية ، والتي حصل فيها سالفادور الليندي على درجة سامية هي المعلم الاكبر . كانت اولى نشاطاته ضمن « الايام الاشتراكية الاثنا عشر » ، لمارمادوكي جروبي ، والذي تزوج اخاه شقيقة الليندي . من الغريب ان الدكتاتورية دفنت الليندي في البارائيسو ، وهذا بدون شك ما كان يريد على جميع الاحوال ، نقلوه بدون اعلان او طقوس ليلة ١١ ايلول عام ١٩٧٣ ، في طائرة مروحية قديمة مهترئة تنفذ الى داخلها الرياح الثلجية الجنوبية ، بمرافقة زوجته هورتسينا بوسي ، واخته لاورا فقط . صرح احد رجالات جهاز المخابرات التابع للطغمة العسكرية القدامى ، والذي اقتحم مع طلائع المقتحمين قصر المونيدا ، بقوله للصحفي الامريكي توماس هاوسر ، انه شاهد جثة الرئيس « ورأسه مهشم وقد تناثرت بقايا دماغه على الارض والجدران » . ربما ولهذا السبب رفض العسكريون طلب

* انتخب عام ١٩٧٠ واغتيل في ايلول ١٩٧٣

* بابلو نيرودا : الشاعر التشيلي الذي حاز على جائزة نوبل للاداب ، ولد في ١٤ تموز ١٩٠٤ . وانتسب للحزب الشيوعي التشيلي في ١٥ تموز ١٩٤٥ وتوفي عام ١٩٧٣ .

عقيلة الليندي ان يكشفوا الغطاء عن وجهه كي تلقي على وجهه النظرة
الاخيرة في التابوت ، فقط ما استطاعت رؤيته كانت هيئته ، مغطاة
بشرشف .

دفنوه في مقبرة سانتا اينيس ، في الضريح العائلي الخاص
ببارمادوكي جروبي ، وبدون اية قرايين سوى باقة ورد وضعتها زوجته ،
كتب عليها « هنا يرقد سالفادور الليندي رئيس تشيلي » . اعتقدوا انهم
بهذه الوسيلة يستطيعون كبح جماح التقدير الشعبي له ، ولكن ذلك كان
مستحيلا ، قبره الان مكان دائم لحجيج الناس اليه ، دائما هناك باقات
من الزهور وضعتها ايد مجهولة .

حاولت الحكومة ان تمنع ذلك ، وروجت الشائعات بان الجثة قد
نقلت الى مكان اخر ، ولكن الزهور لا زالت غضة على قبره .

المقام الاخر الذي يحتشد الناس اليه ولا زال حيا في ذاكرة
الاجيال الجديدة لبابلونيرودا ، حيث مأواه البحري في ايسلانفرا .
هذا المكان القديم ليس بجزيرة ولا سوداء ، رغما عن انه يشار اليه بهذا
الاسم ، انما مكان يأهل بالصيادين يقع الى الجنوب من بالبارائيسو
بحوالي اربعين كيلومترا ، على الطريق الاسفلتي لسان انطونيو ، حيث
اشجار الصنوبر العملاقة في التراب الرملي الاصفر ، والبحر الاخضر
المتلاطم الامواج . هناك كان مأوى بابلونيرودا ، وهو مقام لحجيج
المحبين من ارجاء العالم . تقدمنا انا وفرانكي الفريق ، وذهبنا الى هناك
لوضع خطة التصوير ، بينما كان الفريق الايطالي يقوم باخذ اخر
اللقطات من ميناء بالبارائيسو ، اشار شرطي الحراسة الينا اين يوجد
الجسر ، حيث المأوى ، كان هناك ايضا العديد من الاماكن التي خلدها
الشاعر بابياته ، لكنه حذرني من زيارة المأوى ، لان ذلك ممنوع .

قال - يمكنك مشاهدته من الخارج . اثناء انتظارنا للفريق قرب

المأوى ، فهمنا الى اية درجة اصبح فيها الشاعر روح جزيرة ايسلانغرا .
عندما كان يقضي اوقاته هناك ، تتجمهر فتية من جميع انحاء العالم حول
المكان ، يحملون دليلا سياحيا وحيدا لهم ، هو عشرون قصيدة
حب* .

لا يريدون شيئا ، سوى رؤيته لبرهة ، وفي احسن الاحوال ان
يمهر لهم توقيعه ، كان ذلك يروي ظمأهم بذكرى ذلك المكان . كان
المأوى مكانا مشرقا ، يعج بالثرثرة ، حيث كان يظهر نيرودا بعباءاته
الشعبية الملونة وقبعاته الهندية الحمراء ، كان هائلا ويسير بطيئا مثل
البابا . كان يذهب للحديث بالهاتف - حيث عطل تلفونه باعثا في ذلك
مزيدا من الهدوء - او وضعه عند السيدة ايلينا ، صاحبة المأوى ، عندما
يستضيف اصدقاء له على العشاء في المأوى ، فانه يقوم بكل ما يخص
تجهيز وتقديم العشاء ، وكما لو كان مطبخ المأوى على مستوى رفيع ،
فقد كان نيرودا مختصا الى درجة الاحتراف ، كان ذا حساسية مرفهة تجاه
الاكل اللذيذ ، تهمة دقائق ذلك ، والتي قد لا ترعى انتباه الكثيرين ،
فعندما يفرش الطاولة ، كان على استعداد لتغيير الشراشف ،
والمناشف ، وادوات الاكل ، مرات عدة ، اذا ما استدعته الضرورة ،
وبحيث تتطابق مع صنف الطعام الذي سيقدمونه .

بعد اثني عشر عاما على موته ، بدا وكأنها جرفت رياح الوحدة كل
شيء ، فقد ذهبت السيدة ايلينا الى سانتياغوا مثقلة بالاسى على
فقدانه ، في وقت كان المسكن على وشكن الانهيار .

لكن حتى هذه اللحظة لا زالت اثار الشاعر العظيم ، رغما عن
اخر هزة ارضية ضربت ايسلانغرا ، حيث انها تتعرض وبدون انقطاع
لهزات ارضية كل عشر ، او خمس عشرة دقيقة في كل الايام بلياليها .

* عشرون قصيدة حب والاغنية البائسة : اجمل ما كتب نيرودا من قصائد في الحب ، ونشرت

عام ١٩٢٤ لأول مرة .

« الأرض ترتجف دوماً في أيسلانفرا »

وجدنا مأوى نيرودا مسجياً بخشب الصنوبر ، يحيطه من زواياه الأربع ، وعلى ارتفاع متر تقريباً ، أنشأه الشاعر ليسيج به حول حياته الخاصة ونمت الآن ازهار بين الخشب .

كانت هناك لائحة تحذر من دخول المأوى المختوم بالشمع الأحمر ، أو التقاط الصور له . كان الشرطي الذي يدور هناك بين الفينة والفينة ، أكثر صراحة في كلامه « هنا كل شيء ممنوع » . كما اتفقنا قبل الوصول ، حمل المصور الإيطالي معه جهازاً كبيراً للتصوير ، ظاهراً للعيان كي يحتجزه حاجز الشرطة ، وخبأ جهازاً آخر يدويا ، وايضا ، فقد توزع الفريق في ثلاث سيارات ، بحيث تتمكن من نقل بكرات الأفلام الى سانتياغو وبحيث لا تفقد المواد المصورة التي معنا حالياً ، اذا ما فوجئنا اثناء عملية التصوير . واذا ما فوجئنا عليهم الا يتعرفوا علي ، فما انا وفرانكي سوى سائحين بريئين .

كانت الابواب مغلقة من الداخل ، وقد اسدلت ستائر بيضاء على الشبابيك ، لم يكن العلم مرفوعاً على الصاري عند المدخل ، حيث كان يرفع ليشير بان الشاعر في المنزل .

كان رونق الحديقة يلفت النظر في ذلك الوسط المثير للحزن ، حيث كانت ايد مجهولة تهتم بها .

حملت ماتيلدا ، زوجة نيرودا والتي ماتت قبيل زيارتنا ، متاع

المنزل بعد الانقلاب العسكري ، وكتبه ، وكل ما جمعه الشاعر طيلة حياته العظيمة من تحف وغيره .

من العسير تفسير حاجياته ، ولكنها تحمل في كنفها العديد من الدلائل ، ما كان يميز داره ، ما احتوته اذ انه تنقل في العديد من مناطق العالم . كان محموما لنشوب مخالبه في الطبيعة ، ليس في ابياته الرائدة فقط ، وانما قاداته احساسيه المرهفة الى ان يجمع العديد من انواع الحزن ، والتشايل المجسمة المثبتة في مقدمة القوارب ، وفراشات الفزع ، وكؤوسا مثيرة . في احد بيوته ، شاهد احدهم فجأة حصانا محنطاً بدا وكأنه حصان حي في وسط المكتب . ايضا من بين تولهاته الخلاقة بعد قصائده ، والاقل تمجيذا ، كان شغفه اللا محدود بالفن المعماري لبيوته ، في احدها ، من اجل المرور من الصالة الى غرف النوم ، كان يجب ان تقوم بالسير في فناء الدار ، وكانت عنده مظلات واقية للمطر . حتى يستطيع زائروه تناول الطعام دون ان يتلوا في اوقات المطر . لا احد كان يتمتع او يضحك اكثر منه ، من قضاياه الخاصة هذه التي يبدو وكأن لا معنى لها ، كان اصدقاءه الفنزيوليون ، والذين يربطون الذوق السيء بالحظ السيء ، يقولون عن مجموعاته بانها مرعبة وغير شاعرية .

كان يجيهم ، وهو يفهمه من الضحك بان الشعر هو الاكسير لكل رقي البشر ، وقد اثبت ذلك حتى التخمه بمجموعاته المرعبة . كانت اقامته الرئيسية في شارع ماركيز دي لابلاتا ، في سانتياغو ، حيث مات من جراء سرطان الدم سريعا بسبب الحزن ، بعد الانقلاب العسكري بايام قليلة ، ونهبت قوى الامن داره واضرمت النار بكتبه في الحديقة .

اشترى نيرودا بالنقود التي حصل عليها نظير جائزة نوبل ، وكونه

سفيرا لحكومة الوحدة الشعبية في باريس ، اسطبلا قديما لقلعة في نورمانديا ورمه كي يعيش حيث الزهور على ضفاف بركة . كان سقفه عاليا اشبه بقبو كنيسة ، ذا زجاج ملون به اضواء ترسم على الشاعر الوانا باهرة ، كان يجلس في السرير اثناء استقباله لاصدقائه ، بملبسه ، وبهول كاهن رفيع المستوى ، والتأثير ، لكنه لم يتمتع بحياته فيه اكثر من عام .

حتى الان تتوافد اجيال العاشقين على منزل (ايسلانغرا) والذي يعتبره قراءه افضل صورة لشعره ، اولئك الذين كان لديهم من العمر ثماني سنوات ، عندما كان الشاعر على قيد الحياة ، يأتون اليوم من كل انحاء العالم ليرسموا قلوبا ورسائل عشق جوار المدخل المحظور دخوله . ورسوم وكتابات مختلفة ولكنها لنفس الموضوع ، خوان وروسا يعشقون بعضهم عبر بابلو ، شكرا بابلو لانك علمتنا الحب ، نريد ان نعشق كثيرا مثلك . وهناك ايضا عبارات لم تصل اليها عين الشرطة كي تمسحها ، ايتها الجنرالات ، الحب لا يموت ابدا ، الليندي ونيرودا احياء ، دقيقة من الظلام لن نعمينا . وايضا هناك عبارات شبيهة في امكنة لا تثير الانتباه في السور الخشبي ، العديد من الاجيال المتلاحقة حفرت ونقشت عبارات فوق بعضها لقلّة الحيز . يمكن لاحدهم ان يعيد كتابة قصائد كاملة لنيرودا ، اذا كان لديه جلد ، بعد ان ينظم الايات المتبعثرة والتي كتبها العشاق للذكرى على السور الخشبي المحيط بالدار . اكثر ما كان يثير فينا الدهشة ، ان تلك الكتابات كانت تتدفق بالحياة مع الهزات العميقة في باطن الارض ، والتي كانت تحدث كل عشر او خمس عشرة دقيقة . . وكأنها كان يهم السور الخشبي الخروج من الارض ، تصرصر الاخشاب في مناطق وصلها ، كانت تسمع اصوات قرعة كؤوس ومعادن ، كقارب تتقاذفه الامواج ، وكان العالم كله

يرتجف لذلك الحب الكبير المزروع في المنزل .
كانت كل احتياطاتنا عقيمة ، فلا احد استولى على الكاميرات
او منعنا من المرور ، حيث ولت الشرطة لتناول طعام الغداء . التقطنا
ما اردنا من الصور ، ليس ما كان مقررا له فقط وانما اكثر من ذلك
بكثير ، كان اوغو وقد اتملته الاهتزازات داخل البحر ، حيث غاص
حتى حزامه في الامواج التي كانت تنفجر على الصخور محدثة رعد ما
قبل التاريخ . كان يخاطر بحياته ، ولم يكن بالامكان ترويضه ، ولا
كان احد بقادر على منعه ، حيث كانت الهزات الارضية تجره الى اعماق
البحر .

صور اوغو بدون توقف ، وكما شاء ، كان محموما امام ما
يشاهده ، وكل محترفي السينما تعرف جيدا ، انه من المستحيل التحكم
او قيادة مصور في اللحظات الحاسمة .

« صعدت غراسيا الى السماء »

كل بكرة كنا نفرغ منها ، كانت ترسل بسرعة الى سانتياغوا ، كما كان محمدا ، حيث ستنقلها غراسيا الى ايطاليا في الليلة نفسها ، لم يؤقت رحيلها بمحض الصدفة ، فمنذ اسبوع كنا ندرس الوسيلة الاضمن لاختراج كل المواد المصورة حتى ذلك الحين ، حيث اننا عكفنا عن الطرق السرية لنقلها كما اتفق في الخطة الاساسية . كنا في هذا الموضوع ، عندما انتشر خبر مفاده ، وصول الكاردينال الجديد لتشيلي مونسينيور فرانسيسكو فرزنو ، ليحل محل الكاردينال سلفاهنريكث ، والذي تقاعد نظرا لاتمامه خمسة وسبعين عاما ، هذا الاخير ، ترك خلفه اثرا كبيرا في نفوس الجماهير ، فقد اعطى الامل في تعاضد الكنيسة مع الجماهير ، وغرس في الكنيسة ضميرا نضاليا كان يقض مضاجع الدكتاتورية .

خلال فترته ، كان هناك العديد من القساوسة ، تعمل في المناطق الالهة مع السكان يدا بيد ، كنجارين ، وبنائين ، وبائعين يكسبون بقوة عملهم بحق ، والبعض منهم قتله الشرطة في المظاهرات في الشوارع ، لم يكن شعورهم تجاهه ، مثل الشعور تجاه الكاردينال الجديد الذي يصعب تفسير توجهاته وافكاره السياسية .

رفعت الحكومة كافة العراقيل الناجمة عن حظر التجول ،
واعلنت عبر وسائلها الرسمية الترحيب الحافل والمهييب بالمؤنسيور
فرزنو . ولكن في الوقت نفسه ، صادف ذلك سفر الجنرال بينوشيت في
رحلة الى شمال البلاد وتستغرق اسبوعين ، يرافقه فيها عائلته وكل
المقربين اليه في بلاطه من الوزراء الشبان غير المعروفين ، بدون شك ،
كي لا يرى نفسه او ايا من المقربين اليه مجبرا على المشاركة في الاستقبال
المفروض . كانت المدينة في تيه بسبب التوجهات الرسمية المتناقضة ،
حضر الاستقبال في ساحة دي لاس ارماس الفا شخص ، وهذا ما
تسعه ، وكان في الانتظار ستة الاف شخص على الاقل .
في ظل الارتباك الرسمي ، واتتنا فرصتنا المناسبة ذلك المساء
لاجل اخراج اول شحنة من البكرات الجاهزة من البلاد .
في الليلة نفسها ، وصلني الى البارائيسو رسالة مشفرة : غراسيا
صعدت الى السماء . كان هذا ما حدث : وصلت غراسيا الى المطار مع
العدة المغلفة والمربطة بشكل متين ، حتى ان الشرطة ساعدتها في
تسجيل امتعتها ونقل الحقائق دون ادنى عرقلة ، وسافرت في نفس
الطائرة التي بالكاد هبط منها الكردينال .

الفصل السابع

الشرطة فى تعقب :

دائرة الحصار بدأت تضيق

قضت ايلينا نهاية الأسبوع عكرة المزاج ، بينما كنت أتابع التصوير في كونسبسيون وبالباراتيسو، حيث لم أخبرها . واجبها في مثل هذه الأحوال أن تبلغ عن اختفائي ، ولكنها اعطت مهلة اكبر مما هو مقرر، حيث انها تعرف أنني متلهف على اقتراف المعاصي . انتظرتني طوال ليلة السبت . في يوم الأحد . وقد بدا لها أنني لن آتي ، اتصلت ، بمن يمكن أن تكون لديه أخبار عني ، ولكن دون جدوى . حددت مهلة اخيرة ، اقصاها الثانية عشرة ظهراً من يوم الاثنين . كي تنبه عن اختفائي ، كنت قد انهيت العديد من المهام الخطرة والملحة جداً ، عندما رأنتني أدخل الفندق ، بوجه غير حليق لم يذق طعم النوم ، اقسمت لي بانها لم تعان في حياتها ماعاته مع زوج زائف غير مطيع مثلي . كان لديها في هذه المرة

سبب آخر، محقه فيه. حددت لي في النهاية وبعد أن فشلت عدة محاولات للقاء، رغمًا عن الحرص الشديد الذي لا يوصف، وبعد تخطيطات ملمتري، مقابلة سرية في الحادية عشرة صباحاً في نفس اليوم مع زعماء الجبهة الوطنية مانويل رودريغيث، كانت تلك المهمة، أكثر فصول البرنامج أهمية وصعوبة تتشكل الجبهة الوطنية (مانويل رود ريفيث) في معظمها ان لم تكن كلها، من الجيل الذي للتو تخرج من المدرسة الابتدائية.

عندما قام بينوشيت بالاستيلاء على الحكم، نودي الى وحدة قوى المعارضة، من أجل اسقاط الدكتاتورية واعادة الديمقراطية التي تؤهل الشعب التشيلي في تقرير مصيره بنفسه، اسم الجبهة نسبة الى مانويل رود ريفيث، والذي يرمز الى الاستقلال التشيلي عام ١٨١٠، حيث كان لدى هذا الشخص قدرات خارقة لتسخير واختراق كل الحواجز وسواء القيود الخارجية أم الداخلية منها، وكان على اتصال دائم مع جيش التحرير المتواجد في مندوزا في الجانب الارجنتيني، ومع قوى المقاومة التي تعمل في السر داخل تشيلي، بعد ان اندحر الوطنيون، وثبت الحكم الفعليون سلطتهم آنذاك، طراً وضع شبيه كل الشبه بالوضع الحالي في تشيلي.

يحمل أي صحفي كبير بالفرصة لمقابلة وحوار قادة الجبهة الوطنية. لم استطع أن استثني نفسي من ذلك. تمكنت من الوصول في آخر لحظة، وبعد أن وزعت طاقم الفريق على الأماكن المختلفة المتفق عليها. وصلت الى موقف الباصات في شارع بروفيدنثا، معي الإشارة المتفق عليها والتي تعرفهم علي، عدد من مجلة كي باسبا(*) والمركوريو(**) لذلك اليوم وكان ذلك يتطلب مني فقط ان انتظر شخصاً هناك يقترب مني ويسألني:

(*) ماذا يجري

(*) (*) المركوريو: عطار، اله التجارة، مجلة المركوريو مجلة تعنى بالشؤون الاقتصادية.

- حضرتك ذاهب الى البلاج؟ كان عليّ الاجابة بـ كلا
أنا ذاهب الى حديقة الحيوان. بدت لي كلمة السر عقيمة، فلا
أحد يفكر بالذهاب الى البلاج في الخريف، لكنّ الشخصين المكلفين
بالاتصال بي فسرا لي ذلك لاحقاً، لماذا كانا محقين في ان يكون ذلك
عقيباً. لانه لا يوجد اي احتمال هنا للخطأ أو الوقوع تحت رحمة الصدفة.
بعد عشر دقائق، شعرت اثناءها بأن وجودي أصبح في ذلك المكان مشيراً
للشبهة وبشكل كبير، حيث كان يعج بالحركة. شاهدت شاباً يدنو
مني، ذا قامته متوسطة ونحيفاً جداً، كان يعرج على رجله اليسرى، يضع
قبعة كانت كافية لي أن احدد هويته، أنه من الجماعة توجه صوبي دون
تحفظات، قطعت عليه قبل أن يبدأ بالاشارات السرية. قلت له وأنا
أضحك - الا يمكنك أن تتخفي بطريقة أخرى، فطريقتك مكشوفة،
فحتى انا نفسي عرفتك منها.

كانت اكثر من مفاجأة بالنسبة له، رمقني بأسى قائلاً:
- ايلاحظ ذلك كثيراً؟؟

قلت عن بعد فرسخ
كان شاباً رقيقاً، لا يعير اهتماماً لوضعه السري، وهذا ما أثلج
صدري منذ الاتصال الأول. اقتربت شاحنة نقل سريعاً بينما كان يقف
الى جوارى، كتب عليها - مخابز - توقفت امامي، وجلست جوار
السائق. ثم قامت السيارة بعدة دورات ومناورات وسط المدينة،
وتوجهنا الى حيث الفريق الايطالي في مناطقه المختلفة. لاحقاً شتونا
وتركونا في خمسة اماكن مختلفة، ثم عادوا ووزعونا على السيارات. وفي
النهاية عادوا ليجمعوننا في شاحنة جيش كانت فيها، الكاميرات،
والاضواء، وجهاز الصوت.

كان لدي الانطباع بأنني لا اعيش مغامرة حقيقية وخطره على

الحياة، وانما امثل فيلماً للجواسيس . اختفى عنصر الاتصال ذو القبعة، والوجه المميز لاعضاء المقاومة، في احدى تلك الجولات العدة، ولم اشاهده بعدها . في مكانه ظهر سائق ذو نكته، لكنه كان شديد العزم، جلست جواره . وجلس الفريق في المكان المخصص للشحن خلفنا . قال لنا - سوف آخذكم في مشوار، لتستنشقوا هواء البحر التثيلي .

فتح الراديو على اعلى درجة، وبدأ يدور بنا في المدينة، حتى انا لم اكن على بينة اين نحن، لم يكتف بذلك، بل امرنا أن نغلق عيوننا قال بلهجة تشيلية كنت قد نسيتها:

- «حسنا ايها الصبيه، والان سوف نلعب الطااية(*)» لما بدا له اننا لم نعره اهتماماً، نهرنا وبشكل مباشر .

- هيا الآن وبسرعة، اغلقوا اعينكم، ولا تفتحوها إلا حين آمركم، لان الحكاية سوف تبدأ الآن .

حدثنا بانه كان لديهم لاجل هذه المهام، موديل خاص من النظارات، عبارة عن نظارات شمسية لاتدع العيون ترى من خلالها . لكنه نسي ان يحضرها في هذه المرة فقط . لم يفهم الايطاليون في الخلف لهجته التشيلية، وكان علي أن أترجم لهم، فقلت:

- ناموا .

عندها بدا وكأنهم لم يفهموا شيئاً .

- النوم؟

قلت لهم - كما سمعتم - فالتستلقوا، اغلقوا عيونكم، ولا تفتحوها حتى انبهكم .

الطااية : لعبة يلعبها الصغار، يغمض فيها احدهم عينه ويختبئ . الآخرون - ثم عليه أن يحدد امكتهم .

«استغرقت المسافة عشر معزوفات بالضبط»

اضطجعوا كالكرات في ارضية الشاحنة، بينما واصلت محاولاتي
تشخيص الطريق التي بدأنا باجتيازها، لكن السائق نبهني وبدون ان
يكرر كلامه :

- ايضاً ينطبق مع حضرتك الشيء نفسه، يارفيق، اغمض
عينيك لا اكثر. وضعت رقبتى على مسند الكرسي، واغمضت عيني
وتركت نفسي أسبح في تيار المعزوفات التي كانت تنبعث من مسجلة
السيارة: اغنيات لراؤول شومورينو، لوشو غاتيكيا، هو غوروماني،
اليوماريتيني، الزمن يمضي، تتبدل الاجيال، لكن الاغنيات تبقى حية
في قلوب التشيليين، اكثر من أي بلد آخر.

بين الحين والآخر كانت الشاحنة تتوقف، ويُسمع همس لم
أفهمه، ومن ثم سمعت السائق يقول «الى اللقاء - سنلتقي»، اعتقد أنه
كان يخاطب رفاقاً له تسمروا على تقاطعات مختلفة كانوا يعطونه تعليمات
حول الجولة.

حاولت ان افتح عينيّ وانا اعتقد بأنه لايراني. عندها اكتشفت
انه وضع المرآة العاكسة بطريقة تمكنه من القيادة والحديث بدون أن يرفع
عينيه عنا قال لنا - حذار - اذا فتح احدكم عينيه فسوف نعود بكم الى
الدار، وينتهي المشوار.

عدت لاغلقهما، وابتدأت اغني مع الراديو: احبك، ستعرفين
أنني أحبك.

كان الايطاليون المستلقون في القسم المخصص للشحن يرددون
علي كفرقة انشاء. انشرح صدر السائق قائلاً:
- هكذا ياصيه، غنوا، لاكثر، فانتم تؤدون به شكل رائع -
استمروا على راحتكم.

قبل المنفى كانت هنالك اماكن عدة في سانتياغو يمكن تحديدها
والعيون مغلقة: المسلخ، وذلك بسبب رائحة الدم المتعفن، وناحية
سان ميغيل حيث روائح زيوت الموتورات وعدة السكك الحديدية. في
المكسيك، حيث اقامت اعواماً عدة، كنت اعني بأنني قرب مخرج
كويرنافاكا وذلك بسبب الرائحة المميزة لمصنع الورق، أو في منطقة
ازكابوتزالكو بسبب دخان المضافي.

هنا وقد انتصف النهار في سانتياغو لم اشم رائحة مميزة بينما كنا
نغني، رغمًا عن انني كنت احاول معرفة مكاني بكل مافي من روح
للاستطلاع - في نهاية المطاف توقفت الشاحنة بعد عشر معزوفات،
استدرك السائق قائلاً على عجل:

- لا تفتحوا اعينكم - سننزل بشكل طبيعي، كل واحد يمسك
بيد الآخر، حتى لا يهشموا لكم مؤخراتكم.

وهذا ما فعلناه، وبدأنا نصعد وننزل في ارض رملية رخوه، ربما
كان منحدرًا لاتدركة الشمس، في النهاية دلفنا في مكان معتم أقل برودة
حيث تنبعث روائح السمك الطازج، للحظة اعتقدت اننا في محاذة
البحر في بالباريسو، لكن المجال لم يكن مناسباً لمعرفة ذلك.

عندما امرنا السائق ان نفتح اعيننا، وجدنا انفسنا نحن الخمسة
في غرفة ضيقة، ذات جدران نظيفة، واثاث غير ثمين حفوظ عليه

بشكل كبير. في مواجهتي كان هناك شاب، انيق المظهر، وقد لصق شوارب مستعارة بشكل يثير الانتباه، انفجرت ضاحكاً، وقلت:
- رتب مظهرك بشكل افضل ثم تابعت لايعتقد احد ان هذه شواربك الطبيعية.

قهقه وهو ينزعها قائلاً:

- كنت في عجلة من أمري .

للوهلة سقطت كل الحواجز بيننا، ومن ثم انتقلنا الى الغرفة الثانية نتمازح، الى حيث كان يرقد شخص في ريعان الشباب، ورأسه معصوب لاصابة في رأسه، وقد بدا وكأنه للحظة قد افاق من نومه، عندها فقط فهمنا أننا في مشفى سري، مجهز بشكل جيد، وان الجريح كان فرناندو لاريناس سيجيل اكثر الشخصيات التي تلاحقها السلطة في تشيلي، في الحادية والعشرين من عمره، كان عضواً نشيطاً في الجبهة الوطنية (مانويل رود ريغيث).

قبل اسبوعين وبينما كان يقود سيارته عائداً الى بيته في سانتياغو، في الساحة الواحدة صباحاً، وحيداً وبدون سلاح، احاطة اربعة رجال بزي مدني يحملون أسلحة حربية. وبدون أن يأمره بشيء، أو حتى يسألوه عن شيء، أطلق عليه احدهم النار من خلال الزجاج، واخترقت الطلقة ساعده الايسر واصابته في الجمجمة. بعد ثمان واربعين ساعة، قام اربعة رجال من جبهة (مانويل رود ريغيث) بانتشاله من عيادة نويسترا سينيورا دي لاس نيفرز، وهو في حالة اغماء وتحت الرقابة البوليسية، ونقلوه الى أحد المشافي السرية الاربعة التابعة للحركة. يوم التقيناه، كان في طريقه الى الشفاء، ولديه القدره الكافية للاجابة عن اسئلتنا.

بعد لقائنا بأيام قليلة، استقبلتنا القيادة العليا للحركة الوطنية،

وبنفس الاحتياطات الشبيهة بالسينمائية، ولكنها بطريقة تختلف عن سابقتها: فبدلاً من المشفى السري، وجدنا انفسنا في منزل من طراز بيوت الطبقة المتوسطة، شرح ودافىء، فيه مجموعة هائلة من الاسطوانات الموسيقية لعظماء ودهاقته الموسيقى العالمية، ومكتبة قيمة تحوي كتباً جديدة بالقراءة يندر العثور عليها في العديد من المكتبات المرموقة. فحوى موضوعنا الرئيسي كان النقاط صور لهم، بالافنعة، لكننا عدلنا عن ذلك في النهاية وقررنا أن نسترحم بوسائلنا التكنيكية، بالاضاءة، ويتمويه ملامح الصور، النتيجة - كما يشاهد في الفيلم - صورة اكثر ملاءمة وانسانية، وأقل قسوة من غيرها من المقابلات مع القادة السريين التقليدية السابقة.

بعد ان انجزنا المقابلات المختلفة مع شخصيات شعبية وسرية، اتفقت مع ايلينا على أن تقفل عائده الى نشاطاتها اليومية في اوروبا، حيث كانت تعيش منذ زمن بعيد، تخوض نشاطاً سياسياً على قدر كبير من الأهمية، وهي مؤهلة لأكثر المهام والمواقف خطوره. حتى تلك اللحظة كانت التجربة التي خضتها كفيلة بأن تمكنني من مواصلة وضع اللمسات الأخيرة على الفيلم، والتي من المفترض أن تكون أقل الفصول خطورة. لم اعد والتقيتها حتى هذا اليوم، لكنني للتو وعندما الفيتها تباعد عني وتدلّف محطة المترو، وقد ارتدت من جديد فستانها الاسكتلندي، وانتعلت حذاءها المدرسي، حتى ادركت واكثر مما تصورت، الفراغ الذي ستحدثه، بعد ساعات الحب العديدة الزائفة، والمخاطر المصيرية المشتركة التي اقتسمناها.

بات من الملح، وعلى سبيل الاحتياط، أن تغادر الفرق الاجنبية تشيلي، قبل أن ترحل من البلاد بالقوة، أو يحظر عليها العمل، قامت المقاومة في الداخل بمساعدتي في تشكيل فريق من السينائيين الشبان،

وقد انتخبتهم الحركة من بين صفوفها، ذلك العمل كان في محله حيث قام هذا الفريق بمجهود كبير وادى المهمة بنتائج حسنة كالآخرين، كانوا يعملون بشغف يعون مايفعلوه، حيث إن منظمتهم السياسية، طمأنتنا، بانهم ليسوا مطلقي الثقة فحسب وانما على اهبة الاستعداد لمواجهة المخاطر. حتى اللحظة وقبيل نهاية اسبوع اصبح لدينا ست فرق تشيلية، بعدما كانت الفرق الاجنبية غير كافية، بات ضرورياً استيعاب اشخاص آخرين يقومون بالتصوير في انحاء متفرقة من البلاد، عملت هذه الفرق الست في نفس الوقت وفي مناطق مختلفة، وقد اسدوا الينا جل جهودهم في تحديد ماكنت أصبوا اليه. هذا الجيل الناشئ، على اهبة الاستعداد، يتمتع بحيوية، ولا يتسرع في عمله، يعمل وبصمت من أجل تحرير تشيلي من الكارثة العسكرية. رغماً عن حداثة سنهم، لم تكن لديهم تطلعات الى المستقبل المشرق فقط، وانما يزخرون بماضٍ حافل بالمجد والانتصارات السرية، التي يحفظونها في قلوبهم بكل تواضع.

«بضيق الحصار»

وصل الفريق الفرنسي الى سانتياغو، اثناء الايام التي قابلنا فيها قادة الجبهة الوطنية، بعد أن انجز برنامجه المقرر وحقق نتائج باهرة. كان لاغنى عن دوره، حيث أن الشمال موطن تشكيل الاحزاب السياسية التشيلية التاريخية. وبالتالي فهناك بالمستطاع، . التقاط أفضل صوره عن مجرى النشاط الايديولوجي والسياسي. بدءاً من لويس اميليو ريكابرين، مؤسس أول حزب عمالي، في مطلع هذا القرن، وحتى سالفادور الليندي. في هذه المنطقة، تقع أحد مناجم النحاس الاكثر غنى بالعالم، والتي بدأ الانكليز باستغلالها، في القرن الماضي اثناء مرحلة الثورة الصناعية، وهذا ماجذر طبقتنا العاملة. وهناك أيضاً جزء هام من نشاط الحركة الاجتماعية التشيلية، والتي بدون شك اكثرها اهمية في امريكا اللاتينية. مافتىء الليندي وتسلم السلطة، حتى قام بتأميم مناجم النحاس، كان ذلك اكثر قراراته أهمية واكثرها خطورة، وعندما استحوذ بينوشيت على السلطة، كان أحد اولى قراراته اعادتها الى ملاكها التقليديين.

كان تقرير جان كلود مدير الفريق الفرنسي، مفصلاً، وشاملاً، حيث انه كان يتصورني موجوداً، على الشاشة امامه، اثناء عمله لتجنب العبث بوحدة الفيلم، حيث لم تكن لدي القدرة على متابعة جهوده، الا عندما يقفل عائداً الى مدريد، عندها سيكون قد فاتنا الاوان في بذل أي جهد لتنسيق الفيلم.

لم نجتمع في مكان محدد، وذلك ليس جراء ترتيبات امنية وانما بسبب تلهفنا في اقتناص فرصة التمتع بالتجوال اثناء وجودنا في تشيلي. تجولنا في مركز المدينة، ركبنا الباصات، التي ينذر ركوبها، تناولنا القهوة في الأماكن التي يرتادها الناس بكثرة، تناولنا الصدف مع البيرة، وعندما حل الليل، اكتشفنا أننا على مسافة بعيدة عن الفندق، فدلفنا في المترو الذي لم اشاهده من قبل، كانت الطغمة العسكرية قد افتتحت، علماً بأن حكومة فريي(*) قامت بوضع حجر الاساس للعمل به، وواصلت حكومة الليندي خطة إنشائه ادهشتني نظافته، وفعاليته، وكيف أن أبناء بلدي اعتادوا على التنقل فيه تحت الارض بكل اريحية. كان ذلك بحد ذاته عالماً، لم أكن قد اكتشفته حتى تلك اللحظة، دار في خلدنا فكره، فلدينا الحجة المقنعة لطلب ترخيص بالتصوير فيه، بما أن الفرنسيين قاموا بإنشائه، فإذن بإمكان جان كلود أن يصوره. وصلنا محطة بدرو فالديفيا وهنا حدثت ونحن نصعد الدرج خارجين بان احدهم كان يراقبنا، كان رجل امن بزي مدني، يفرسنا ملياً، التقت نظراتنا في وسط الطريق. آنذاك كان بمستطاعي أن أميز شرطي مدني بين حشد من المارة. رغمًا عن انه يساورهم الاعتقاد بانهم يتخفون بزي المواطن، الا أن لديهم هيئة مميزة، يرتدون سترة زرقاء قصيرة قائمة، ولت موضعها، حليقي الشعر حتى لتخاله بمستوى جلد رؤوسهم، اشبه بالكلفين العسكريين، أول مايبرر عنهم، طريقتهم في التحديق، فالتشيليون

(*) ادواردو فريي : رئيس تشيلي من ١٩٦٠ - ١٩٦٥ ومن ذلك العام واصل ايضاً حتى ١٩٧٠ إلى أن تولى الليندي مقاليد الحكم.

لايتلفتون للناس في الشارع ، انما يسرون ، او يستقلون الباصات ،
ونظراتهم ثابتة . تنبه الرجل المربوع القامة والذي كان يلاحقني بنظراته ،
انني اكتشفت كنهه . كان قد دس يديه في جيوب سترته الصوفية الخشنة ،
والسيجارة بين شفتيه ، وقد اغمض عينه اليسرى بسبب الدخان
المتصاعد من سيجارته . كان بكل مألديه من قدرة يتصنع دور
رجال المباحث في الافلام . لا اعرف لماذا بدا لي وكأنه ، غواتون رومو ،
قاتل الدكتاتورية المأجور ، الذي اندس في صفوف اليسار ، وتصنع
التطرف . ومن ثم وشى عن العديد من النشاطات السرية ، للسلطة
حيث بطشت بها .

اعترف أن خطأي الفاحش ، كان تحديقي فيه ، لم أتدارك ذلك ،
لم يكن ذلك تصرفاً طوعياً وانما فطري ، ومن ثم وبنفس القوة الفطرية ،
تلفت يساراً ، وفي الحال يميناً الى ان هناك اثنين آخرين .

همست بصوت منخفض موجهاً خديثي الى جان كلود :

«تحدث معي في أي موضوع» - حدثني ، ولكن اياك أن تبدي
شيئاً ، اياك أن تنظر ، أو تفعل شيئاً .

فهم قصدي . تابعنا سيرنا بشكل طبيعي وهادئ ، حتى صعدنا
الى السطح . كان الليل قد اجتاحنا ، والهواء كان معتدلاً وشفافاً اكثر من
الايام الماضية ، كان عدة من المارة تقفل عائدة الى بيوتها عن طريق الا
لاميدا . عندها ابتعدت عن جان كلود قائلاً :

- اختف عن الانظار ، سوف التقيك لاحقاً .

ركض يميناً ، بينما غصت في جموع المارة في اتجاه معاكس . للتو
أقلتني سيارة اجرة مرت أمامي وكأن أمني قد ارسلتها ، سنحت عندها
الفرصة لمشاهدة ثلاثتهم في دھول وقد فرغوا من الصعود من محطة
المترو ، وقتها تحيروا من يتبعون ، جان كلود أم أنا ، وابتلعهم حشود

المارة . نزلت من السيارة بعد أن قطعت أربعة مفارق ، واستأجرت سيارة أخرى في الاتجاه المغاير ، ومن ثم انتقلت الى اخرى واخرى ، حتى بات لي من المؤكد أنهم ليسوا في أثري . مالم استطع ادراكه ، ولن ادركه ابداً ، لماذا تعقبونا . دلفت اول سينما في وجهي ، دون أن أدقق فيما كان عليه من برنامج للعرض ، حيث أنني على قناعة تامة وبسبب حرفتي ، بأنه لا توجد بيئة اكثر أمناً ، واكثر ملاءمة للتفكير منها .

«تعجبك مؤخرتي يا رجل؟»

ماكانوا يقدمونه في تلك السينما عرضاً يتضمن فيلماً استعراضياً حياً ، ما إن فرغت من الجلوس ، حتى اختتم عرض الفيلم ، ثم اضيئت انوار خافتة ، تقدم مايسترو العرض على المسرح ، واسهب في تقديم برنامجه الاستعراضي بشكل ممل . كنت مشدوها حتى تلك اللحظة ، اتابع نظراتي نحو المدخل ، أتأكد فيما إذا كانوا يتابعونني . أخذ جيراني يحدقون حيث انظر وقد اعتراهم حب الاستطلاع الذي لايمكن كبتة ، والذي اشبه بقانون في السلوك البشري ، كما يحدث عادة في الشارع عندما يرفع أحدهم بصره الى السماء ، وينتهي ذلك بأن تتوقف المارة وتأخذ بالتحديق في نفس الاتجاه .

كان المكان غريباً ومثيراً للدهشة، الديكور، الأضواء، ضم العرض السينمائي مع العرض الخلاعي الحي، فوق هذا وذاك كان جميع المشاهدين رجالاً، اشبه بالفارين من وجه العدالة. لاتعرف الى اين تلجأ، بدا جميعهم وانا اكثر منهم وكأننا متخفون حتى انه لم يكن بغريب على شرطي سواء كان محققاً في ذلك أم لا، أن يظن بان ذلك كان اجتماعاً سرياً مشيراً للشبهات. اثار القائمون على ذلك العرض، بشكل بديع الانطباع بانه محظور، وبالذات عندما بدأ المايسترو في تقديم العارضات على المسرح، وكأنهن اشبه بصحون لذيدة في الوجبة. كن عاريات كما خلقهن الله، لولا انهن تبرجن كي يظهرن فتنة اكثر مما هن عليه ماان انتهت الافتتاحية، مكثت واحدة منهن في المسرح، سمراء، مثيرة، وساحرة. كانت تهز جذعها وساقها بدلال، تحرك شفيتها، على انغام اغنية لروسو خورادو كانت تنبعث من اسطوانة بصوت عالٍ جداً، لكأنها كانت تغنيها. مضت برهة كنت انتهز فيها فرصة ملائمة للخروج، آنذاك نزلت من على المسرح تجر جر وراءها شريطاً كهربائياً كبيراً كالأفعى وفي يدها الميكروفون، تتصنع الفكاهة العاهرة، عندما شعرت بأن ضوءاً كشافاً تسلط علي، تنادى الى مسمعي في الحال، صوتها قائلة بعهر:

- والآن. لنر حضره السيد ذا الصلعة البراقة :

لم يكن ذلك شخصي، وانما الذي انتحله، لكن لسوء حظي، كان علي أن أجيب عنه. دنت العارضة مني وهي تجرجر الكابل وراءها، زفرت في وجهي، لدرجة تناءى الى أنفي رائحة زفيرها:

- مارأيك في اوراكي .

قلت والميكروفون على فمي : مابوسعي قوله لك، انها رائعان ثم ادارت لي ظهرها، وهزت اليتيها في وجهي .

- وكيف تبدولك، مؤخرتي، يارجل؟

قلت: رهيبه، تصوري !

كان يسمع بعد كل اجابة لي، تسجيل لفهقهات عدة في مكبرات الصوت، كما في افلام الكوميديا الخاصة بالاطفال في التلفزيون الامريكي . كانت تلك البدعة ضرورية، لانه لاحد يضحك في الصلاة، بدا ساعتها وكأن كل واحد منهم ينشد الاختفاء عن انظار الاخرين .

دنت العارضة مني اكثر واستمرت تتلوى في وجهي، حتى شاهدت خالاً أسودَ نبت فيه الشعر، اشبه بالعنكبوت على احدى اليتيها.

- ايعجبك خالي يارجل؟

بعد كل سؤال كانت تقرب الميكروفون الى فمي، حتى ترفع من درجة صوت اجابتي .

قلت: طبعاً، فكل مافيك جميل .

- وماذا سيفعل حضرتك معي، اذا مادعوتك لقضاء ليلة في الفراش معي؟ هيا . هيا حدثني، حدثني بكل شيء .

قلت: انظري، لا اعرف ماذا أقول لك - سأضاجعك كثيراً .

تلك المحنة ماكانت لتنتهي ابداً . في اثناء تشوش افكاري، نسيت الحديث بالاوروغوائية، وحاولت ان ابين ذلك في آخر اللحظة . فعندما سألتني من أين أكون، حاولت أن اقلد لهجة الشخصية التي انتحلها وعندما نظقت، هتفت:

- الاوروغواييون رائعون في الفراش، وحضرتك اليس كذلك؟

لم يبق امامي عندها، سوى ان اضع حداً لذلك وبصفاقه قلت:

- لو سمحت، كفى، لاتسأليني اكثر.

عندها تنبهت الى انه لايمكنها مواصلة ذلك معي ، وفتشت عن آخر لتحاوره . حالما بدا لي أن خروجي لن يثير الانتباه، تركت الصلاة على عجل ، والانتقباض المتزايد يجتاحني ، يراودني الاحساس بان كل ماحدث لي ذلك المساء لم يكن بمحض الصدفة .

الفصل الثامن

انتباه :

هناك جنرال مستعد

لأن يروى كل شيء

الى جانب الاتصالات التي رتبها ايلينا، قمت باتصالات على هامش العمل مع اصدقاء قدامى ، ساعدوني في تشكيل فرق التصوير التشيلية، وساهموا في تحركي بمطلق الحرية في انحاء البلاد. اول شخص بحثت عنه في الايام التي تلت عودتي من كونسبسيون، كانت ايلويسا، امرأة رشيقة وجيلة تزوجت من ثري صناعي شهير. رافقتني الى حيث حماتها، ارملة تجاوزت السبعين عاما، مقدمة وذكية، كانت تقضي ساعات وحدتها تتابع برامج التلفزيون، حلمها الذهبي ان تصبح بطلة لمغامرات حية في الحياة اليومية.

كانت تربطني مع ايلويسا نشاطات سياسية قمنا بها في الجامعة وصداقة تعمقت خلال آخر حملة انتخابية لسالفادور الليندي، شاركنا

فيها في قسم الدعاية . عرفت بمحض الصدفة بعد وصولي بأيام قليلة ، بانها نجمة شهيرة في العلاقات العامة . لم استطع مقاومة رغبتني في أن اهتف لها على تلفونها دون ان اعرفها بنفسني ، حتى أتأكد من انها هي . رد علي صوتها هادئا وواثقا ، لكنني لم أتأكد من كلماتها . ذلك المساء انتظرت في كافتيريا في شارع هويرفانو ، حتى اشاهدها وهي تخرج من مكتبها ، لم يكن باديا عليها الاثنا عشر عاما التي مرت علينا ، وانما كانت اكثر رشاقة وجمالا مما كنت اعدها . ايضا دقت النظر ، لم يكن معها سائق خاص ، كما كنت اعتقد ، كونها عقيلة برجوازي رفيع الشأن . وانما كانت هي من يقود سيارة ال ب . م . دبل يو ال ٦٣٥ الملفتة للنظر ، ذات اللون الفضي لذلك ارسلت لها رسالة عبر البريد من سطر واحد : انطونيو هنا ويود مقابلتك .

كان ذلك اسمي الحركي الذي عرفتني به ، خلال أيام النضال السياسي في الجامعة ، وانا كنت على ثقة بانها تذكره . وكما توقعت في اليوم التالي ، وفي الواحدة تماما ، مرت سمكة القرش الفضية من خلال زاوية ابو كينادو ، امام شركة رينو ، قفزت داخل السيارة واغلقت الباب ، اما هي فقد تجمد الدم في عروقها ذاهلة ، حتى عرفتني من ضحكتي ، وقالت : أ أنت مجنون؟

قلت لها : أيساورك شك في ذلك؟

توجهنا لتناول طعام الغداء في «الميسون»* الذي ذهبنا اليه اول مرة .

كانت ابوابه مغلقة وقد دق تقاطع من الخشب عليها ، وبدا اعلان وكأنه شاهد لقبر «اغلق نهائيا» لذلك توجهنا الى مطعم فرنسي كنت اعرفه في تلك الانحاء . لا اذكر اسمه ، لكنه كان مريحاً ، ويخدمون فيه بشكل جيد ، يقع امام الماخور الاكثر شهرة ورواقا في المدينة ، انشرفت

* الميسون : مطعم شعبي صغير في الغالب تديره عائلة .

ايلويسا كثيرا وهي تتعرف على سيارات الزبائن الذين كانوا يمارسون الجنس، بينما كنا نتناول الطعام، لم افاجأ بنضج خلقها الرائع. دخلت في الموضوع، وحدثها دون تحفظات عن غرضي السري، وطلبت عونها في القيام ببعض الاتصالات التي لاتشكل خطرا عليها، كونها مسترة بمواصفات طبقتها. حدث ذلك، بينما لم نعثر على حل لمعضلة التصوير في المناطق الأهلة حيث كان يعوزنا عرابين سياسيين، كنت اعتقد بانها تستطيع مساعدتنا في العثور على اصدقاء لكلينا منذ زمن الوحدة الشعبية، فقدت اتصالي بهم في غياهب ظروف العمل السري. لم تتحمس لذلك فقط، وانما رافقتني ولثلاث ليال لحضور اجتماعات سرية كانت تعقد في قطاعات من المدينة، يثير الوصول اليها الشبهة مستقلا سيارة مقدسة مثل سيارتها.

قالت بسرور: لاحد يعتقد بان سيارة ب أم دبل ديو ٦٣٥، معادية للدكتاتورية، ففضلها لم يقتادون ذات ليلة عندما فوجئت وانا برفقة ايلويسا بانقطاع التيار الكهربائي، حيث كانت المقاومة تقوم وبشكل متكرر بقطعه تلك الايام. كان قادة الاجتماع قد نبهوني الى ذلك قبل الحدث. اول مرة انقطع التيار الكهربائي ولمدة اربعين دقيقة ومن ثم مدة ساعة، وبأن هناك انقطاعا ثالثا سيرك سانتياغو بدون اناارة مدة يومين او ثلاثة.

تقرر ان يكون الاجتماع في ساعة مبكرة، اذ ان قوى الامن ستصبح في حالة هستيرية كبيرة. خلال فترة الانقطاع، وبحيث تعتقل دورياتهم في الشوارع أيا كان تحت طائلة الشبهات. وبعد ذلك بفترة يحل موعد حظر التجول. فوجئنا ولم نكن قد فرغنا من المقابلة الرئيسية، عندما حدث اول انقطاع. اشار قادة الاجتماع علي وعلى ايلويسا ان نغادر المكان بسرعة، لان التيار سيعود سريعا، واما البقية فستخرج بعد ذلك

كلا على حدة. وهذا ما حدث؛ ما إن عاد التيار كنا قد غادرنا بسرعة
وسرنا في شارع غير معبد يحاذي جبلا. فجأة وعند منعطف، وجدنا
انفسنا في مواجهة قافلة من العربات التابعة للمخابرات CNI وقد سدت
الشارع ما عدا امر ضيق في وسط الشارع. كانوا يرتدون زيا مدنيا
ومسلحين برشاشات اتوماتيكية، حاولت ايلويسا التوقف لكنني منعتها.
قالت: من المفروض التوقف. قلت لها: استمري ولا تنفعلي...
استمري وانت تحاذئين ضاحكة، لانتوقفي ما داموا لم يأمرؤك بذلك،
واوراقي الثبوتية جاهزة ومضبوطة.

ما ان فرغت من قول ذلك، حتى تحسست جيوي، تجمد كبدي:
لم تكن محفظة الاوراق الثبوتية معي. توقف أحدهم في وسط الشارع،
ورفع يده، وكان على ايلويسا ان تتوقف، سلط نور البطارية اليدوي
على وجوهنا، تفقد بالضوء انحاء السيارة واثار علينا بالمرور، دون ان
يتفوه بينت شفة. كانت ايلويسا محقة في ذلك: لايساور احدا الاعتقاد
ان هناك خطرا سياسيا يأتي من سيارة كسيارتها.

«جدة تقفز بالمظلات»

في تلك الايام تعرفت على حماتها، قرر كلانا ان يلقبها كلمنسيا ايساروا منذ اول زيارة لها، دار في خلدنا ان ندعوها بذلك دون ان نعرف كنهة قمنا بزيارتها دون ان نشعرها مسبقا بذلك في منزلها الكبير والبديع رقم ٧٢٧ في احد الاحياء الراقية، في الخامسة مساء، وجدناها في حالة من الغبطة، تتناول فنجانا من الشاي مع البسكويت الانكليزي، بينما كان يسمع في الصالة صدى الاسلحة البعيدة المدى، بدت شاشة التلفزيون ملطخة بالدم. كانت ترتدي زيا ذا ماركة شهيرة، حاكته الايدي، وتضع قبعة وقفازات يدوية، اعتادت تناول الشاي في الخامسة تماما وهي ترتدي ملابسها، كما لو انها تهيأت للخروج لحفلة عيد ميلاد، حتى لو كانت لوحدها، اشبه بها في الروايات الانكليزية، لكن ذلك لم يكن ليتلاءم مع شخصيتها، فقد كُنت متزوجة، ولديها ابناء، قادت طائرات شراعية في كندا وحققت رقما في القفز المظلي.

عندما استشفيت اننا نبحث عنها لاجل مهمة سرية، هامة وخطرة، قالت لي: «يا للروعة، فالحياة مملة جدا هنا، الواحد منا يلبس، يرتب

نفسه، يتأق، لكنه لا يعرف لماذا. هدفنا على وجه التحديد، ان تساعدنا في البحث عن خمسة اشخاص في احياء مختلفة من المدينة؛ ذلك احبط من عزائمها، قالت: أمن أجل وضع قنابل؟؟
لم أحبذ ان الجأ في بجثي عن الخمسة عبر وسائل رجال المقاومة المعتادة.

عمل جميعهم معي في السابق، ايام الوحدة الشعبية، ولم اعرف عنهم شيئاً فيما بعد احدهم كان الذي نبه زوجتي الى انهم كانوا يعدمونني يوم الانقلاب العسكري امام مكاتب تشيلي فيلمز. آخر قضى السنة الاولى من حكم الدكتاتورية في معسكر للاعتقال، ومن ثم تابع حياته الاعتيادية في سانتياغو، يؤدي نشاطات سياسية. آخر مكث مدة في المكسيك، حيث قام باتصالات مع المنفيين التشيليين، وعاد باوراقه الثبوتية الرسمية للعمل في الداخل مع المقاومة، آخر شاركني نشاطاتي في كلية المسرح، ثم تابعنا معا في السينما، والتلفزيون وفي الوقت نفسه فهو قائد عمالي نشط. آخر كان قد مكث في ايطاليا مدة عامين، والان يعمل سائقا لشاحنة نقل، وهذا ما يؤهله ان يسدي الينا عملا جليلا، استبدل الخمسة منازلهم، المهنة، الهوية، ولم يكن امامي سبيل اعثر به عليهم. يوجد الان الاف من التشيليين يعيشون بهذه الطريقة يعملون مع المقاومة، بهويات مختلفة عن التي كانت معهم حتى عام ١٩٧٣، كانت مهمة كلمنسيا ايساورا ان تعثر على الخيط الذي يوصلنا بالكرة، ايضاً كان لا غنى عن ذلك، حيث سأتعرف على اوضاعهم واحوالهم، قبل ان يتبين لهم انني في تشيلي، والبحث فيما إذا كان بوسعهم مساعدتي.

لم اعرف كيف قامت بالبحث بشكل مفصل، بالكاد كان لدينا الوقت الكافي للقائنا قبيل خروجي بهدوء وكذلك لم اوجه اليها العديد

من الاسئلة حول ذلك ، ولانه آنذاك لم يدر في الخلد رواية مغامرتها في هذا الكتاب ، الشيء الوحيد الذي قالته لي ، بانها لم تشاهد ابداً في التلفزيون فيلماً رائعاً كالذي عاشته . اعرف بانها كان عليها ان تقضي اياماً كاملة على اقدامها وهي تبحث في الاحياء الفقيرة ، تسأل هنا ، وتبحث هناك ، في الاشياء القليلة المبعثرة في رأسي ، والتي غابت عن ذاكرتي ، نبهتها ان تلبس بطريقة تجعلها غير مميزة في وسط الفقراء ، لكنها لم تعر اقوالي انتباهاً . ذهبت كما لو انها تريد شرب الشاي مع البسكويت الانكليزي في عوالم الفقراء البائسين ، حيث الضجة القاذورات والفوضى في منطقة مسلخ سانتياغو ، كانت مفاجأة لمن اصطدموا برويتها فجأة في ذلك المرتفع القديم حيث تبحث عن عناوين غير واضحة بفضول مثير للريبة .

كان لطفها ودفؤها البشري لأيقاوم ، وكانت تعطي الثقة في الحال ، كانت نتيجة ذلك بعد اسبوع ، ان عثرت على ثلاثة من المفقودين ورتبت لاجلهم في رقم ٧٢٧ مأدبة لم اشاهد افضل ولا اكثر ابهة ، مما لو كانت عليه مأدبة انكليزية . من هناك تأسس اول فريق تشيلي ، وتم برمجة الاتصالات لاجل التصوير في المناطق الأهلة المتفرقة ، لايمكن اغفال دور البطلة في المراحل التالية ، تعاونت ، بدون كلل وبتواضع . كانت مشيره للاعجاب ، ونادراً ما كانت تُشاهد ، يتفتق ذهنها عن حلول لم يسمع بها من قبل ، فيها مقومات عضو التنظيم السري ، بذلوا جهدهم حتى لا يحدث أي خلل اثناء التصوير في تلك الاماكن . كان الاسم الذي اطلقناه عليها ، والوحيد الذي عرفناها به ، وكان محدداً لصورتها وتخليداً لجهودها : «النحلة التي لانقهر» .

«البحث الطويل عن الجنرال الكترك»

بينما كانت كلمنسيا ايساورا تبحث . استثمرت ساعات الفراغ بعد التصوير وقمت باتصالات مع مستويات عليا بمساعدة ايساورا ، ذات ليلة بينما كنت مع ايلويسا في احد المطاعم الفخمة ننتظر مبعوثاً لم يصلنا ابداً ، عندما دخل جنرالان بصدرين اشبع بدرعين من كثرة النياشين والميداليات حيثهم بيدها عن بعد بطريقة عائلية جداً ، اعترفتي مشاعر قائمة عن المستقبل . اقترب احدهما من طاولتنا ، وتحادث واقفاً على قدميه مع ايلويسا ، حول المجتمع المخملي لعدة دقائق ، دون ان يلتفت نحوي بنظرة . لم اعرف رتبته ، فأنا لم اتعلم ، كيف اميز بين نجوم الجنرالات ونجوم الفنادق .

عندما عادت الى الطاولة ، اخفضت صوتها ، وحدثني لأول مرة عن علاقاتها الطيبة مع بعض العسكريين ذوي الرتب العليا ، والذين اعتادت رؤيتهم بسبب عملها .

حسب وجهة نظرها ، ان احد اسباب استمرار بينوشيت في السلطة ، انه ازاح عن الخدمة اولئك الضباط ، الذين هم من جيله ، واحاط نفسه بقيادة عليا من ضباط جدد ، دائماً كانوا اقل رتبة منه ، ليسوا باصدقائه ، وبالكاد يعرفهم ، معظمهم يطيعه طاعة عمياء . لكنه في

الوقت نفسه اكثر جوانبه ضعفاً حيث ان العديد من الضباط الجدد يشعرون بان ايديهم نظيفة ولم تتلطح باغتيال الرئيس الليندي ، ولا حتى بالممارسات البربرية في اعوام القمع الدموي والاستيلاء اللا مشروع على السلطة ، ويعتقدون أن القدرة الالهية اختارتهم ، ليسترد المدنيون الديمقراطية المسلوية منهم دون عناء ، استمرت ايلويسا ، وأنا مذهول مما تقوله ، الى ابعد من ذلك : على الاقل ان جنراً ممن تعرفهم كان على استعداد لان يفصح وللملأ عمق الفساد الداخلي في القوات المسلحة . قالت - هذا ، لديه الاستعداد للحديث هزني الخبر . ان استطيع تقديم ذلك الدليل في فيلمي ، يعني اثارة ضجة ولذلك غيرت وبشكل كامل خططتي في الايام القادمة . لسوء الحظ ، لم تستطع ايلويسا ان تحدد عواقب اللقاء الاول ، ولا الوقت كان يسمح لها بمحاولة معرفة ذلك لانها ستذهب الى اوروبا في رحلة ، لثلاثة شهور مع زوجها ، بعد يومين .

ولكن بعد ذلك بايام قليلة ، هتفت الى كلمنسيا ايساورا ، على جناح السرعة الى بيتها وقدمت لي الشيفرة التي قدمها احدهم اليها بناءً على طلب من ايلويسا لاجل العثور على العسكري المستعد لقول ذلك ، والذي عمدهنا باسم سري ، الجنرال الكتريك . اعطتني لوحة الكترونية صغيرة جداً للعب الشطرنج ، حيث كنت سأذهب في اليوم التالي الى كنيسة سان فرانسيسكو ، أتأبط اللوحة ابتداءً من الخامسة مساءً .

لاأذكر منذ متى لم ادخل كنيسة . احد الاشياء التي اثار انتباهي ، هي مشاهدة العديد من النسوة يُجنّ الصوف ، والرجال يقرأون قصصاً وجرائد ، ويعبثون ويضيعون الوقت بأي شئ ما عدا الصلاة . عندها فقط ، عرفت لماذا ارسلتني ايلويسا مع لوحة الشطرنج الالكترونية ، فللهولة الاولى ، بدا لي وكأنه من غير المناسب ان اذهب للتسليه داخل

الكنيسة . يوم وصولي كنت قد شاهدت الناس بُكياً، منكمشين على انفسهم، في ذلك المساء . في الحقيقة كان الناس في تشيلي بنفس الصورة قبل الوحدة الشعبية . حدث التبدل الكبير عندما ترشح الليندي للسلطة عندها تشجع الناس وبات بالامكان الظفر، فَبَدَلنا الانتصار فجأة لنصبح في بلد مغاير: اخذنا نخفي في الشوارع، نرسم على الجدران، الكل كان يتيه في المظاهرات الحاشدة، حيث كنا نفرغ رغبتنا الجامحة بالحياة .

انتظرت يومين متتاليين، العب الشطرنج مع شخصي الآخر، الاورغوائي حتى سمعت خلفي، همس امرأة، كانت جالسة خلفي، دنت مني وهمست في اذني: - لانتظر حولك، ولا تقل شيئاً . - وكأنها تعترف أمام الراهب في الكنيسة وتابعت: - احفظ في ذاكرتك رقم الهاتف، والاشارات السرية التي سأتلوها عليك، ولا تخرج من الكنيسة قبل خمس عشرة دقيقة من خروجي .

عندما نهضت وتوجهت نحو المذبح الاكبر، تبين لي أنها راهبة شابة وجميلة جداً . ما كان عليّ حفظه هو الاشارات السرية . حيث انني سجلت الرقم في لوحة الشطرنج الالكترونية، كان يفترض ان يكون هذا السبيل الذي سيقودني، الى الجنرال الكتريك، لكن يبدو ان الرياح جرت بما لا تشتهي السفن .

في الايام التالية، مررت رقم الهاتف المطلوب، دون خطأ، وظمأي يتزايد، دائماً كان الرد نفسه: «في اليوم التالي» .

«من يستطيع ان يتفاهم مع الشرطة»

فاجأني جان كلود بما كنت لانتظره، فقد اعتقلت الشرطة ثلاثة اعضاء يشكلون فريقاً ايطالياً سينمائياً كان يعمل في تشيلي، في احوال غامضة، حيث قامت الشرطة باعتقالهم بينما كانوا يصورون بدون مأذونية في بلدة لاليغوا، هذا طبقاً لما نشره مكتب فرانس براس في سانتياغو ونشر في باريس ومؤرخاً في الاسبوع الماضي.

اعتقد فرانكي بان نهايتنا قد اقتربت، تقبلت الامر بهدوء. لم يكن جان كلود على بينة ان هناك فريقين آخرين اضافة لفريقه يعملان معي، وكذلك لم يكن الفريقان الاخران يعرفا شيئاً عن الفريق الفرنسي، اشعاره لنا لم يكن سوى من قبيل المصادفة ونظراً لتشابه العمل. اذا اعتقل احد في نفس الشروط، فهذا يعني انه سوف يعتقل، وقد خاف ان يلقي المصير نفسه.

حاولت تهديته قائلاً: لانكترث، هذا ليس له علاقة بموضوعنا. ما ان تركني لوحدي، حتى ذهبت لانفقد الايطاليين، فوجدتهم في احسن حال، وبدون اية مشكلة، وفي مكانهم المحدد. كانت غراسيا قد عادت من اوروبا، وكانت آنذاك على رأس الفريق، اكد لي اوغويان البرقية قد تعممت في ايطاليا ايضاً، رغمًا عن نفي الوكالة الايطالية لذلك.

السيء في الامر، ان الخبر الكاذب كان يعينهم هم وبأسمائهم، وانتشر ذلك بسرعة هائلة. هذا لم يكن غريباً، سانتياغو تحت الحكم الدكتاتوري اشبه بمنحلة للشكوك. تلد، وتتكاثر، ثم تتلاشى، تثير الذعر مرات عدة في اليوم، لكنها دوماً تعبر عن شيء من الصحة.

لم يمر الخبر بشكل عابر. فقد كان على مدار اللسن في اليوم الفائق، اثناء حفل استقبال اقامته السفارة الايطالية، فما ان دخل اعضاء الفريق في الفارة حتى هب لاستقبالهم رئيس مديرية الاتصالات العامة، والذي قال كي يسمع جميع المدعوين: تعالوا هاكم يا حضرات، ها هم المعتقلون الثلاثة. كان لدى غراسيا حدس، بانهم يتعقبونهم قبل ان تعرف بمضمون البرقية.

بعد ان انتهى حفل السفارة، ولدى وصول الفريق الى الفندق، بدا لهم وكأن احدهم عبث في حقائبهم واوراقهم في غرفهم، ولكن لم يحتف شيء منها. من الممكن ان يكون ذلك هاجساً، وفي الوقت نفسه يمكن ان يكون تعبيراً عن التحذير، في جميع الاحوال، كانت هناك اسباب عدة للاعتقاد. بأن هناك شيئاً يحدث في الخفاء. تلك الليلة لم استطع النوم، وانا اكتب رسالة الى رئيس محكمة العدل العليا، استنكر عودتي لوطني في السر، من أجل ان تكون جاهزة في حالة اعتقالي. لم تكن الفكرة الهاماً نزل علي فجأة، وأنا حصيلة انعكاسات كانت تتراكم بشكل حثيث وتستعجلني، نظراً لان الحصار بدأ يضيق الخناق.

في البداية، استقبلتها كجملة مأساوية، اشبه برسائل البحارة التي يضعونها في زجاجة ويلقونها في البحر. في لحظة، وبينما كنت اكتب تنبهت الى انني بحاجة الى احقاق عملي سياسياً وانسانياً، فقد تنبهت الى واجبي في التعبير عن احساسيس الالاف من التشيليين الذين يعاونون مثلي طاعون اقتلاع الانسان من وطنه.

عدت، وبدأت مرات عدة، مزقت العديد من الاوراق التي تلتمس
الصفح وانا منغلق على نفسي في غرفة موحشة في الفندق، والتي كانت
وبكل الاحوال غرفة لمنفي في وطنه، عندما فرغت، كانت أجراس
الكنائس قد بدأت تنادي للصلاة، وقد عكرت صمت حظر التجول،
وكانت اوائل خيوط الضوء المتسللة، تشير الى آلام شديدة، خلال
ضباب ذلك الخريف الذين لاينسى .

الفصل التاسع

حتى أُمي لم تعرفني

كانت لدينا عدة أسباب كافية للقلق من انه ، قد اصبح لدى الشرطة معلومات تفيد بانني في تشيلي ، وعن ماهية العمل الذي نقوم به . قضينا شهراً في سانتياغو، شوهدت اثناءه الفرق في الاماكن العامة ، اكثر مما يتفق مع الوضع ، واجرينا العديد من الاتصالات مع شخصيات مختلفة ، العديد منهم كان على بينة بانني اقود الفيلم . تعودت على وضعي الجديد لدرجة انني نسيت الحديث بالاوروغوائية ، لم اعر كثيراً جانب الحذر في الحياة اليومية . في البداية ، كنا نعقد الاجتماعات في سيارات تتحرك دون اتجاه محدد ، في كل ارجاء المدينة ، وكنا نغير اتجاهنا كلما تجاوزنا اربعة أو خمسة مفارق ، كانت طريقة معقدة جداً تورطنا في مخاطر اكثر سوءاً من تلك التي نحاول تجنبها . ذات ليلة حدث ، وأن نزلت من سيارة على تقاطع بروفيدنتا مع لوس ليونس ، حيث ستقلني

سيارة زرقاء رينو ١٢ ، بعد خمس دقائق . كان يميز السيارة لوحة لجمعية الرفق بالحيوان ، الصقت على الزجاج الوافي من الريح ، وصلت في الوقت المناسب ، فصعدت في المكان الامامي لسيارة رينو ١٢ ، زرقاء لامعة ايضاً ، لم ادقق فيما اذا كانت تضع اللوحة ، كما هو متفق ، فاذا بامرأة ناضجة لكنها لا زالت تتمتع بجمال باهر وقد زادت الحلي من فتنها ، يفوح عطرها الساحر ، ترتدي معطفاً يميل لونه الى الوردي يفوق سعره مرتين أو ثلاثة اضعاف سعر السيارة ، انها مثال حي لطبقة سانتياغو الراقية .

ما أن شاهدتني اندفع في السيارة ، حتى فغرت فاهها من الرعب ، لكنني استعجلت اهدئها بكلمة السر .

اين استطيع شراء مظلة واقية من المطر في هذه الساعة .

- استدار الي سائقها الخاص ونبح

- انزل ، والا استدعيت لك الشرطة .

تبتهت الى انه لم تكن هناك اللوحة المطلوبة على واقية الرياح ، للتو شعرت بالم في معدتي جراء هذا الاحراج .

قلت : - آسف ، أخطأت في السيارة .

استعادت المرأة توازنها ، وامسكت بذراعي ، وهدأت السائق برقة شفافة وسألته :

- أتكون ابواب مخازن باريس مفتوحة في هذه الساعة؟

اعتقد السائق بانها مفتوحة للبيع في ذلك الوقت ، بدا لي أنها جادة في مرافقتي الى حيث اشترى المظلمة ، لم تكن جميلة فحسب ، وانما لطيفة ودافئة ، ايضاً تملككتني الرغبة الجامحة في ان انسى ولوليلة واحدة ، القهر السياسي ، والفني ، وأن أغوص معها في ذلك الجو المشبع بالدفء البشري . تركتني عند ابواب مخازن باريس ، واعتذرت عن عدم مرافقتي

في البحث عن المظلة، اذ انها تأخرت نصف ساعة تقريباً عن أخذ زوجها لحضور حفل موسيقي لعازف عالمي شهير على البيانو، لا اذكر اسمه.

مخاطرنا كانت تتمثل في تعودنا، ففي كل مرة كنا نستخدم جملاً قليلة التداول، عندما نتعرف على هوياتنا في بداية اللقاءات السرية. اصبحنا ومن أول تحية اصدقاء لرسل المقاومة، ولم نكن ندخل بشكل مباشر في موضوعنا، وانما كنا نتبادل الحديث مطولاً حول الوضع السياسي، وعن المستجدات في السينما، والأدب، وكذلك الحال مع اصدقائي السابقين الذين كنت شغفاً لرؤيتهم، رغماً عن التحذيرات التي سبقت هذه الرغبة حرصاً على امانهم، وصل رسول مره في الموعد المحدد وليؤكد بساطته اتى برفقة أحد اطفاله، سأل هذا الاخير وهو يكاد يختنق من الدهشة: - «انت الذي تعمل فيلماً عن سويرمان». هكذا بدأت افهم انه من الممكن العيش في تشيلي متخفياً، مثل مئات عده من المنفيين الذين عادوا سراً ويواصلون حياتهم اليومية، دون الشعور بتوتر الاعصاب الذي انتابني في البداية، لولا ارتباطي بالفيلم، الذي لم يكن يتعلق فقط بوطني، وباصدقائي، وانما بي ايضاً، لكنت غيرت حرفتي ووسطي الاجتماعي وواصلت حياتي في سانتياغو بوجهي الحقيقي. كان علي أن ارغم نفسي على التعقل ولو بادننى درجة، وان اتصرف بطريقة أخرى، امام ثورة الشك بان الشرطة تتعقب خطواتنا. بقي معلقاً امامنا، القيام بالتصوير داخل قصر المونيدا، حيث انه لتلك اللحظة، كان التصريح غير جاهز، يعاني تأجلاً متواصلاً دون أن نعرف كنه الاسباب، وايضاً بقي معلقاً امامنا، تصوير بويرتومونت والوادي المركزي، المفاجأة المحتملة، مقابلة الجنرال الكترك. صممت أن أقوم بالتصوير بنفسي في الوادي المركزي حيث انها منطقتي التي ولدت

وترعرعت وعشت مراهقتي فيها . ما زالت والدتي تواصل حياتها هناك في قرية بالميا الفقيرة، حذروني من مغبة زيارتها، دائماً، ولاسباب أمنية .
اول ما قمت به كان اعادة تنظيم ادوار الفرق الاجنبية، بطريقة تمكنهم من انجاز المهمة وبدون مجازفات، والعودة حال الانتهاء من ذلك سريعاً الى بلادهم، فقط سيبقى الايطاليون في سانتياغو، لرافقهم في تصوير لامونيدا . سيعود الفريق الفرنسي الى باريس في اقرب فرصة بعد أن انجز تصوير «مسيرة الجوع» والتي سيعلن عنها في الايام القليلة القادمة . سيرحل الفريق الهولندي والذي كان ينتظرنني في بويرتومونت، لمشاركتهم التصوير وعلى مقربة من الدائرة القطبية، ومن ثم يرحل الى الارجنتين بعد ذلك، عبر الطريق البري المار من باريلوشي .
بعد رحيل الفرق الثلاث، نكون قد انجزنا تصوير ٨٠٪ من الافلام، حيث تسلم في مدريد لتظهيرها . كانت ايلي قد اتمت مرحلة هامة عندما وصلت اسبانيا، حيث وجدت الفيلم جاهزاً للمونتاج .

«اتي ليتين، صور ثم رحل»

امام الاوضاع المشوشة ايامها، لم يكن امامنا سوى فرصة ان نقوم بخروج زائف من البلد، ومن ثم نعود لندخله من جديد. وباحتياطات اشد من السابق. اعطيتني الرحلة الى بويرتو مونت، فرصة ثمينة، فقد كان سهلاً علي القيام بتصوير ذلك من الارجتين. مثله مثل تشيلي، وهذا ماحدث، اذ طلبت من الفريق الهولندي ان ينتظري هناك، وتواعدت مع احدى الفرق التشيلية، ان تلتقيني بعد ثلاثة ايام في وادي كولشاغوا وسط البلاد، اقلعت برفقة فرانكي جواً الى بوينوس ايريس، قبل ذلك بساعات قليلة اتصلت هاتفياً بمجلة اناليسز، دون أن أحدد هويتي وقمت بتقديم مقابلة مع الصحفية باتريشيا كولير، شملت دخولي السري الى سانتياغو، بعد خروجي بيومين، نشرت المقابلة مرفقة بصورة لي في الصفحة الاولى، تحت عنوان فيه روح السخرية الرومانية: اتي ليتين، صور ثم رحل.

وكي يبدو ذلك حقيقياً، اقلتنا كلمنسيا ايساورا، انا وفرانكي الى مطار بوداهويل، تقود سيارتها الخاصة، وودعتنا بقبلات ودموع مسرحية.

كنا قد ثبتنا خروجنا بهذه الطريقة ، وكانت عيون المقاومة تشيعنا عن قرب ، حيث كانوا سيعلمون عما اذا اعتقلونا، سمح لنا هذا ان نعرف وفي المقام الاول ، عدم وجود اسمينا في قائمة المطلوبين ، وكذلك سمح لنا بان نثبت خروجنا فيما اذا جرى تحقيق في المستقبل بهذا الصدد ، عندها ستعتقد الشرطة إننا خرجنا من البلد .

في بوينوس ايريس ، ابرزت جواز سفري الاصلي ، حتى لا اقع في مشاكل مع بلد صديق . بينما كنت افتح الجواز في شباك الهجرة والجوازات ، تنبّهت الى خلل لم اتجنّبه : فقد اخذت الصور ، على جواز سفري الاصلي ، قبل تنكري ، وهي لا تشبهني كثيراً . كان من الصعب التعرف علي وحاجباي مقلمان ، وصلعتي اكثر انتشاراً ، وايضاً بعدسات طبية . كانوا قد حذروني منذ زمن ، اذ ان صعوبة انتحال شخصية لا تقل صعوبة عن استعادة الشخصية الاصلية لكنني كنت قد نسيت ذلك تماماً ، وأنا في أمس الحاجة لمعرفة ذلك . لحسن حظي ، لم يدقق المفتش في بوينوس ايريس تقاسم وجهي ، وهكذا كتبت لي النجاة من المأساة ، بصمت ، فأنا لم أكن ساعتها بقادر أن أكون أنا بنفسي .

طبقاً لتوجيهاتي ، كان على فرانكي ، ان ينسق مع ايلي بواسطة الهاتف ، تفاصيل المهمة الباقية ، وكذلك أن يستلم النقود التي ارسلتها من مدريد كمصروفات للمسات الاخيرة .

افترقنا هناك ، على ان نلتقي في سانتياغو . اقلعت بالطائرة الى مندوزا ، في الاراضي الارгентينية ، كي اقوم بتصوير الهضبة التشيلية ، كان ذلك في غاية السهولة ، وحيث تمكنت من العبور من مندوزا الى تشيلي عبر نفق دون أن تعترضنا نقاط تفتيش مشددة . اجتزت الحدود سيراً على الاقدام ، وحيداً ، ومعني كاميرا خفيفة ١٦ ملم ، وقمت بالتصوير من الطرف الآخر كما قمت به أولاً ، وعادوت الخروج وقد

اقلتني سيارة للشرطة التشيلية، حيث تعاطف سائقها مع هذا الصحفي الاورغواني، العاثر، والذي ليس لديه ما يؤهله للعودة الى الارجنتين. تابعت طريقي من مندوزا الى موقع باريلوشي الحدودي الآخر جنوباً. اقلعنا في مركب قديم محمل بالسياح الارجنتينيين، والاورغوائيين، والبرازيليين، وايضاً التشيليين العائدين لديارهم. من ذلك الموقع وعبر الطبيعة القطبية المتوهجة، والانهارات الثلجية الضخمة الى الحدود التشيلية، ثم نقلتنا في الجزء الاخير الى بوير تومونت (عبارة) مهشم زجاج نوافذها، حيث كانت الريح القطبية تصفر فيها كعواء الذئاب، ولم يكن هناك مكان نلتجىء إليه من البرد الرهيب. ولا حتى ما يؤكل أو يشرب: لاقهوة ولا كأس من النبيذ، لاشيء. لكن حساباتي كانت دقيقة، فاذا ما اكتشفت الشرطة أنني خرجت من المطار، فانه ليس من السهل أن يتكهنوا أنني عدت مجدداً ودخلت في اليوم التالي من نقطة تبعد ألف كيلو متر من سانتياغو. قبيل الوصول الى نقطة التفتيش الحدودية، جمع موظف في القارب حوالي ثلاثمائة جواز سفر، والتي بالكاد دققوها، سريعاً أعادوها ودون أن يمهروها بدمغ الدخول. باستثناء التشيليين الذين دقت أسماؤهم وقورنت بالقائمة الطويلة للمنفين الممنوعين من العودة، والتي كانت مبنية على الجدار، أمام أعين المراقبين. أما بالنسبة لنا، فقد تم عبورنا الحدود دون عراقيل. سوى أن موظفين لم أعرف أنهما من الشرطة بسبب ملابسهما القطبية، أمراني بفتح الحقائب. لكنني تنبعت الى أن ذلك كان بمحض الصدفة، ولم أكرث كثيراً، لأنني كنت واثقاً من أنني لاأحمل شيئاً لايتعلق بهويتي الزائفة. بيد أنه عندما فتحت الحقيبة، قفزت الى الاعلى وتدحرجت على الارض، علب سجائر (الجيتان) العديدة الفارغة، والتي كتبت على العديد منها ملاحظات حول التصوير.

عندما وصلت البلد كنت قد جهزت نفسي بكمية كبيرة من (الجيتان)، ولمدة شهرين، ولم أجزؤ على رمي العلب الفارغة، كانت كبيرة، وكرتونها صلباً، تثير الملاحظة وبشكل كبير في تشيلي، وكذلك فانها تترك أثراً سهلاً للشرطة عني .

كنت أحتفظ في جيوبي بالعلب التي أفرغ منها، ومن ثم أخبئها في كل الانحاء، كتبت على العديد منها ملاحظات حول التصوير. بدا لي وفي لحظة ما، وكأن ذلك كان قدراً، فقد كانت محشاة في كل جيوب ملابسي المعلقة في الخزانة، تحت الفراش، في السرير، في حقائب السفر، كنت أبحث عن وسيلة مأمونة للتخلص منها. وهكذا وقعت في القموم السوداوية لسجين يحفر نفقاً للهرب، لكنه لايعرف أين يخفي التراب. كل مرة كنت أرتب فيها الحقيبة، حال استبدال الفندق، أتساءل، ماذا أفعل بهذه العلب العديدة الفارغة. أخيراً لم يخطر في خلدي حل أسهل من حملها في الحقيبة، حيث إنهم إذا ما فاجأوني وأنا أمزقها، فإن ذلك سيثير شكوكهم أكثر مما كانت عليه في حقيقة الامر. فكرت أن ألقها في الارجنتين، لكن الامور سارت هناك بسرعة غريبة، لم تسنح لي الفرصة لفتح الحقيبة، الى أن وجب علي هنا فتحها في الحدود الجنوبية، كنت خائفاً وأنا أشاهد دهشة وشكوك الشرطة، عندما أسرع في ملئمة العلب المتناثرة على الارض .

قلت : - انها فارغة .

بالطبع، لم يصدقوا اقوالي، بينما كان اكثرهم فتوة منهمكاً مع مسافرين آخرين، فتح الاكبر سنا العلب واحدة واحدة، وفحصها من الخارج والداخل، وحاول أن يفك رموز بعض ملاحظاتي. عندها بدرت مني ومضة من الالهام . قائلاً .

- انها ابيات شعرية، تدور في خلدي احياناً فأدونها .

تابع فحصه لها بصمت، ثم نفّس وجهي، حاول أن يقرأ فيه شيئاً
عن لغز هذه العلب الفارغة.

قلت: - يمكنك أن تحتفظ بها.

قال: - وبماذا ستفيدني؟

عندها ساعدني في ترتيبها مرة أخرى، في الحقيقة ثم تحول عني الى
السمافر التالي، بقيت مشدوهاً، ولم يخطر ببالي أن القيها في القمامة هناك
في الحال، امام الشرطة، وانما تابعت رحلتي اجرجرها معي حتى
النهاية. عندما عدت الى مدريد، لم أدع ايلي أن تتلفها. شعرت بانني
مرتبط بها، وقررت الاحتفاظ بها طوال ما تبقى لي من حياتي، فهي أثر
عظيم للتجارب العديدة القاسية والتي ستغلي فيها الذاكرة على النار
المهاتنه في مطابخ الذكريات.

«التقط صورته لمستقبل الوطن»

في بويرتو مونت ، كان ينتظرنى فريق التصوير الهولندي ، ليس بسبب جمال الطبيعة الأخاذ هناك ، وإنما لما تمثله المنطقة في تاريخنا المعاصر ، فقد كانت مسرحاً للنضال الدؤوب ، وقد جرى قمع وحشي هناك ، قامت به حكومة ادواردو فريي ، بحيث تفرقت القلة القليلة من القوى التقدمية عن الحكومة ، وهذا ساهم في تعجيل الدعوة للانتخابات ، حيث انتصر سالفادور الليندي .

انتهى برنامج التصوير في بوير مونت والجنوب بشكل كامل ، وغادر الفريق الهولندي البلاد عبر باريلوشي متوجها الى بوينس ايريس ، يحمل معه كمية لا بأس بها من المواد المصورة ، حيث سيدعه لدى ايلي في مدريد . توجهت نحو تالكا في ليلة هادئة ، بواسطة القطار ، لم يحدث فيها ما يستحق ذكره ، باستثناء ، دجاجة مشوية قدمت الى ، وعادت بعافية دون أن أمسها الى المطبخ ، حيث لم يكن بإمكانى تقطيع اوصالها ولا حتى أن تخترق السكين جلدتها المصفح .

استأجرت في تالكا سيارة ، وتوجهت صوب سان فرانسيسكو في قلب البايي دي كولشاغوا . هناك في ساحة دي لاس آرماس ، لم يكن هناك مكان ولا شجرة ، ولا حتى حجر في جدار لم يعد بي الى طفولتي . وعلى

وجهه الخصوص، مبنى اللىسىو الهرم، حيث كتبت فيه اولى الاحرف
جلست في مقعد، التقط صوراً، افادتني فيما بعد في الفيلم. كانت
الساحة تمتلئ رويداً رويداً بلغط الاطفال الذين يدخلون المدرسة.
بعضهم كان يتراءى امام الكاميرا، آخرون كانوا ينتصبون امام
الاهداف التي اريد تصويرها، او يرفعون ايديهم. رقصت طفلة برهة،
كما لو كانت محترفة، طلبت منها أن ترقص مره ثانية، لالتقط لها صورة
مع جو ذلك المكان. فجأة تجمعهر عدة أطفال وجلسوا جوارى، وقالوا
لي:

- التقط صورته، لمستقبل الوطن.

ادهشني سماع ذلك، كانت الاجابة على سؤال من تلك الاسئلة
العديدة التي دونتها على علب الجيتان. سأقول بأنه من المحال أن تجد
في تشيلي أحداً، ليس لديه فكرة عن المستقبل. مع أن جيل الاطفال
هذا لم يعرف بلداً آخر، الا ان لديهم صورة عن المستقبل.

كنت قد حددت موعداً للقاء الفريق التشيلي، في الساعة الواحدة
والنصف من صباح ذلك اليوم على جسر ماكيس. وصلت في الموعد
المحدد على الجانب الايمن، ورأيت الكاميرات منصوبة على الضفة
المقابلة. كان صباحاً شفافاً، معطراً بشذا الزعر، شعرت بالطمأنينة،
ولم اشعر كثيراً بانني منفي، كما كنت أحس في أي وقت مضى في مسقط
رأسي، عندها نزعنت ربطة عنقي وبدلة شخصي الآخر الانكليزية،
وعدت لأصبح أنا نفسي، بستره وبسراويل كاوبوي، وبلحية، أثر
يومين من سفري من بوينس ايرسي، كنت اعشق أن اشعر بعبق تركها
دون حلاقة، كانت علامة اضافية لهويتي المستعادة. لفت نظري أن
المصور قد شاهدني من خلال المنظار، نزلت من السيارة، وعبرت الجسر
بطيء كي افسح له المجال لتصويري، ومن ثم حيتهم، واحداً تلو

الأخر، كنت متحمساً لشغفهم ونضجهم قبل الاوان. بدوا اكبر من سنهم الحقيقي، خمسة عشر، سبعة عشر، تسعة عشر عاماً، كان لدى ريكاردو، اكبرهم سناً، والذي كان يقود الفريق من العمر واحد وعشرون عاماً، كان الآخرون ينادونه (بالعجوز). اكثر ما حرك جوانحي تلك الايام كان كسب فرصة التمتع معهم. هناك، وعلى حافتي النهر، انجزنا برنامج التصوير، الذي ابتدأناه في العاجل. علي أن اعترف بان اهدافي لذلك اليوم كانت تبتعد شيئاً فشيئاً عن الغرض الاساسي، وعلى وجه التحديد فقد راحت تتعلق بها يخص ذكرياتي، حيث دفعتني مجموعة من أقراني الى الماء عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، لأتعلم السباحة بالقوة.

وفي مجرى عملنا، عدنا للهدف الرئيسي للرحلة، الى وادي سان فرناندو وهي منظمة زراعية عريضة، تحول الفلاحين ولاول مرة في تاريخهم الى احرار، في زمن حكومة الوحدة الشعبية، والذين كانوا دوماً مغلولين كأقنان. قبل ذلك كانت الاوليفارشيه الزراعية، والتي تقر نتائج الانتخابات باصواتها واصوات الاقنان التابعين لها. وخلال حكومة ادواردو فريي الديمقراطية المسيحية، نظم اول اضراب شامل للفلاحين، وقد شارك في ذلك سالفادور الليندي بشخصه، وما أن أصبح في الحكومة حتى حدد ملكية الاراضي، ونظم الفلاحين في تعاونيات نشطة.

الآن يقع وكرمز للتخلف، في الوادي المركزي، بيت بينوشيت الصيفي، لم استطع ترك ذلك المكان، دون أخذ صورة عن تمثال دون نيكولاس بالاثيو مؤلف (السلالة التشيلية) وهو كتاب فريد من نوعه، صور فيه كاتبه بان التشيليين الأصليين، الذين سبقوا الهجرات الكبيرة، الباسكية، الايطالية، العربية، الفرنسية، الألمانية، هم من سلالة

الهلنيين الاغريق الكلاسيكية بشكل مباشر، وهم من اختارهم التاريخ، ليسيطروا على امريكا اللاتينية، ولأجل أن يسود طريق الحق وخلاص العالم. ولدت في مكان قريب جداً من ذلك، وطوال فترة الصبا، اعتدت أن أرى التمثال مرات عدة في اليوم عندما كنت أمر في طريقي الى المدرسة أيامها لم يوضح الي أحد عما كان عليه، اقتلعه بينو شيت من مكانه، وقد كان شديد الاعجاب بنيكولاس بالاثيو ونصبه في موضع آخر، في قلب سانتياغو، بالكاد انهينا الجولة مع حلول الظلام، فقد كان علينا أن نقطع مائة وأربعين كيلو متراً للعودة الى سانتياغو قبل أن يحل موعد حظر التجول، ذهب الفريق في طريقه باستثناء ريكاردو، الذي مكث معي على مقود السيارة، وقمنا بجولة طويلة حتى البحر، نحدد أماكن التصوير لليوم التالي، بينما كنا منهمكين في هذا، اجتزنا أربعة حواجز، بدون أدنى عقبة. بعد أن اجتزنا الأول، نزعنا ملابس ميغيل ليتين، مخرج السينما، احتياطاً، وعادت ارتداء شخصيتي الاورغوائية، أم اشعر كيف مر الوقت واكتشفنا فجأة انها أصبحت الثانية عشرة ليلاً - مضى نصف ساعة على حظر التجول - وعشنا لحظة من الفزع، مرتعبين من الاصطدام مع حاجز، عندها اشترت على ريكاردو أن يخرج عن الطريق الرئيسية، ودلفت في طريق ترابي تذكرته كما لو كنت قطعت بالامس، وقلت له أن يتجه يساراً، حيث يقطع الجسر، ومن ثم يميناً عبر زقاق غير مرئي، حيث كانت تسمع جلبة حيوانات مستيقظة في العتمة، وأن يطفىء أنوار السيارة ويتابع في طريق رملي ذي انحناءات ضيقة، هابطاً وصاعداً، وفي نهاية الطريق دخلنا قرية نائمة كانت كلابها الضالة تنبح على كل حيوانات الافنية، وفي الجانب الآخر من القرية، توقفنا أمام بيت والدتي. حتي تلك اللحظة لم يدر في خلدي ولا خلد ريكاردو، بان ذلك كان مدبراً. اقسم بانه لم

يكن هكذا . وعندما شعرت باننا نخترق منع التجول، الشيء الذي تبادر لي، كان ان نختبئ في الخلاء بعيداً عن الطريق حتى يحل الصباح، حيث انه حتى نصل سانتياغو فقد بقي امامنا أربعة حواجز للشرطة . عندما تركنا الطريق فقط، تعرفت على طريق صباي، ونباح الكلاب على الطرف الآخر للجسر. ورائحة الرماد المنبعث من المطابخ الدافئة، ولم أستطع كبت نبضاتي التي لانتوقف تستحثني أن أفاجيء أمي .

« علك صديقاً لأبنائي »

لا زالت قرية بالميا، بسكانها الأربعمئة، على ما كانت عليه، عندما كنت طفلاً. وصل جدي والد أبي - الفلسطيني - الذي ولد في بيت ساحور - وجدي والد أمي - اليوناني كريستوس كوكوميديس، في أوائل هذا القرن، في طلائع موجة مهاجرة، ووضعوا حداً لترحالهم في أنحاء سكة الحديد، والتي كانت مصدر حياة بالميا الوحيد في ذلك الزمان، عندها كان ينتهي خط القطار، والذي يربط الآن سانتياغو مع الساحل. حيث كان ينتقل المسافرون، أو ينزلون البضائع القادمة من البحر، أو ترسل للبحر، وهذا مانشط التجارة العابرة وصنع في ذلك المكان ازدهاراً مؤقتاً.

فيما بعد، عندما استطالت سكة الحديد حتى البحر، حافظت المحطة على كونها موقفاً إجبارياً للقطارات، حتى تزود بالماء للمحركات، حيث تتوقف عشر دقائق، وأحياناً كان يطول التوقف ليستغرق يوماً بأكمله، كانت تمر القطارات مولولة، حيث دار ماتيلدا - جديتي العربية - تشعر عن وصولها. لم تكن القرية في يوم أكبر مما هي عليه اليوم: شارع طويل تناثرت حوله البيوت، وطريق آخر قصير، تشرف عليه عدة بيوت، في الأسفل يوجد محل شهير يدعى «لاكاليرا»، حيث

كانت كل عائلة تصنع نبيذاً رائعاً، كانت تقدمه لأي كان - هناك، جرة، ليحكم آيه الأفضل . كان هكذا . ومن ثم تحولت (لاكاليرا) إلى فردوس للثملين الآتين من أنحاء البلاد.

حملت ماتيلدا معها أوائل المجلات المختارة إلى القرية، وكانت مولهة جداً بها وتشبع نهمها منها، كانت تقدم حديقته التي أمام البيت، لأجل عروض السيرك، والمسرح المتجول، وأحياناً كان يعرض هناك بعض الأفلام، والتي كان يأتي بها المتنقلون بين الفينة والفينة، وحيث أعربت تلك عن أحلامي منذ أن شاهدت أول الأفلام، عندما كان عمري خمس سنوات، كنت جالساً في حضن الجددة، كان الفيلم لجينو بيبادى برافنتي، الذكرى التي أحفظها عنه كانت تثير الذعر، حيث مرت أعوام عدة قبل ان أعرف كيف تُخب الخيل، وتطل تلك الوجوه الضخمة على شرشف أبيض، معلق بين الأشجار. وصلت أنا وريكاردو إلى دار جدي اليوناني، حيث كانت تعيش والدتي كريستينا كوكوميديس، وحيث عشت فترة المراهقة، تم تشييدها في ١٩٠٠، ولا زالت تحتفظ بطرازها الريفي التشيلي التقليدي، حيث الباحة الواسعة التي تطل عليها الغرف، بممراتها الضيقة المظللة، وغرفها من الحجر، وبمطابخها الواسعة، وفي زاوية منعزلة منها توجد اسطبلات الأغنام، والخيل.

نسمي المكان الذي تقع فيها، لوس نارانخوس*، فتحس دائماً بشذا البرتقال الحمضي، وهناك نباتات الزينة وكل صنف من الزهور البراقة. لأستطيع وصف شعوري، عندما وجدت نفسي هناك، لدرجة أنني نزلت من العربة قبل أن تتوقف، ودخلت في الممرات المقفرة، قطعت الباحة في الدياجير، أول من خرج لاستقبالي كان كلباً ضالاً، تعلق بين ساقي، لكنني تابعت سيري، دون أن يتناهى إلي أي أثر لوجود البشر،

* اشجار البرتقال الحمضي (النارج)

عند كل خطوة، كنت استل من الذكرى أشياء غابت، ساعة في مساء، رائحة منسية، دنوت في ختام مشوار طويل من باب الصلاة والتي بالكاد كانت مضاءة بضوء شاحب، حيث كانت هناك أُمي. كان المنظر غريباً، الصلاة كبيرة جداً، ذات سقف عالٍ، وبجدران ملساء، لم يكن هناك الكثير من الاثاث سوى مقعد جلست فيه أُمي، وقد أدارت ظهرها للباب جوار الموقد، ومقعداً آخر كان يجلس فيه أخوها، خالي بابلو. كانوا جالسين بصمت، كلاهما دون حراك يحدقان في اتجاه ما، هادئين، كما لو كانا يشاهدان التلفزيون، في الحقيقة كانا ينظران الى الصلاة. تقدمت نحوهما دون أن أحدث ضجة، لم يتبها الى وقع خطواتي فاجأتهما: -

- حسناً ولكن لماذا لا يرحب أحد هنا بالقادم، ويا للخسارة، عندها نهضت أُمي قائلة

- علك صديق لأبنائي، دعني أعانقك.

لم يشاهدني الخال بابلو منذ أن تركت تشيلي قبل اثني عشر عاماً، بالكاد تحرك من مقعده.

كانت والدتي قد شاهدتني في ايلول من العام الغائب في مدريد، لم تكن لتعرفني حتى بعد أن نهضت ودنت مني، لهذا شددت على أكتافها، وأخذت أمزها عليها تذكروني. قلت: - لكن حدقي في جيداً، يا كرسينيا، انظري في عيني، إنني أنا. عاودت النظر في عيني عليها تكتشف شيئاً آخر، لكنها لم تستطع أن تشخصني.

قالت: - لا، لا أعرف من تكون.

قلت: - لكن، كيف لا تعرفيني، قلت وأنا أقهقه ضاحكاً: - أنا ابنك ميغيل. عندها عادت تنظرني مجدداً، اصطبغ محياها بشحوب قاتل.

قالت: - آه، أشعر بالدوران، سأسقط.

كان علي أن أحيطها بذراعي ، حتى لا تسقط أرضاً ، بينما كان الحال بابلو مذهباً مثلها لهول الصدمة .

قال : هذا آخر ما كنت أنتظر رؤيته ، الآن أستطيع أن اسلم الروح بسلام ، حاول أن يدنو ليحتضني . كان يبدو كعصفور ، شعر رأسه ناصع البياض .

وقد التف ببطانيه ، رغماً عن أنه يكبرني فقط بخمسة أعوام ، تزوج ، وانفصل عن زوجته ، منذ ذلك الوقت انتقل ليحل في بيت والدتي . دائماً كان وحيداً ، وعجوزاً منذ طفولته .

قلت : - ليس الى هذه الدرجة يا خالي ، كيف ستفعلها بنا وتموت الآن - هيا أحضر زجاجة نبيذ كي نحتفل بالعودة .

قالت أمي وقد قطعت علينا ، كماداتها فاجأتني بها كنت لا أحلم به :

- عندي المستول جاهز* .

لم أصدق ذلك ، حتى رأيته في المطبخ ، يطبخ المستول فقط في البيوت اليونانية ، في المآدب الكبيرة وفي المناسبات ، لأن تجهيزه يتطلب تحضيراً مجهداً . وهو طهاء مع الحروف ، والحمص وكرات صغيرة من دقيق الحنطة ، يشبه الكسكسي العربي ، وكانت أمي تحضره لأول مرة ذلك العام وبدون سبب . فقط بناءً على إيجاءات صرقة . أكل ريكاردو معنا ومن ثم انسحب للنوم . بدون شك حتى يتركنا في راحة مطلقة . بعده بقليل انسحب خالي ، تابعنا الحديث أنا وأمي حتى مطلع الفجر . كنا نتبادل الحديث كأصدقاء ، لأن أعمارنا كانت متقاربة ، فقد تزوجت والذي عندما كانت في السادسة عشرة من عمرها ، وانجبتني بعد عام من ذلك ، لدرجة أنني اذكرها كيف كانت في العشرين من عمرها ،

* أعتقد أن الراوي قد أخطأ الظن فالمستول هو المفتول بلهجة وسط وجنوب فلسطين . فإمالي بيت ساحور يطلقون على الكسكسي المغربي والمغربية في بلاد الشام وشمال فلسطين ، المفتول . Almastol

فائقة الجمال، رقيقة، وكانت تلعب معي كما لو لم أكن بابنها وإنما لعبة من لعبها المصنوعة من القماش.

كانت متوقدة الشعور لعودتي، لم يرق لها كثيراً طريقي الجديدة في الملابس، دوماً كانت معجبة بملبسي الذي تعهده. قالت لي:

«تبدو كراهب. لم أبين لها سبب تنكري ولا حتى أوضاعي. وهدف دخولي تشيلي فضلت أن يبقى ذلك على هامش مغامرتي، وحتى لا أجلب لها مصائب هي غنية عنها. وفوق ذلك أن تبقى خارج الموضوع الذي أقوم به. قبل أن ييزغ الصباح، أمسكت بيدي. وسارت بي عبر الفناء دون أن تفصح لي، وحملت في راحة يدها شمعة مضاءة. كما في روايات ديكنز. وقدمت لي أكبر مفاجأة في الرحلة. ففي نهاية الباحة، كان هناك الاستديو الذي كنت املكه، في بيتي في سانتياغو قبل فراري الى الخارج، كما تركته، وكل شيء كان بداخله.

بعد أن اقتحم العسكر الدار آخر مرة، وتوجب علي الرحيل الى المكسيك مع ايلي والاطفال، تعاقدت امي مع صديق معماري، قام بفك الاستوديو قطعة قطعة. ثم عاد ليركبه كما كان عليه في الدار العائلية القديمة في بالميا، كان بنفس الحالة التي تركته فيه، بنفس الفوضى وعدم الترتيب كان فيه كل ما يخصني من أوراق في حياتي، واعمال المسرحية ايام الشباب، وبرامج سينمائية كاملة، وجداول بفصول سينمائية، الهواء الذي كنت اشتمه له بنفس اللون والرائحة حتى كأنني شعرت بنفس التاريخ ونفس الساعة التي رأيت فيها الاستوديو لآخر مرة.

فجأة غمرتني هزة جازفة من الانفعالات. لحظتها لم أستطع أن أحدد فيما إذا احضرته أمي ورتبته. حتى لا أشعر بالغربة في بيتي السابق إذا ما عدت مرة أخرى، أم لأجل أن تتذكرني دوماً إذا ما مت في المنفى.

الفصل العاشر

نهاية سعيدة

بمساعدة الشرطة

كانت العودة الى سانتياغو هذه المرة مخوفة بالمخاطر فالانطباع كان جلياً بأن الحصار حولنا قد بدأ يضيق الخناق أكثر من السابق . قمع رجال الأمن بقسوة دموية «مسيرة الجوع» ، وقد انهالت الشرطة بالضرب على بعض العناصر من فريقنا، وتحطمت الكاميرا . لأحد الاشخاص الذين اعتادوا علينا، كانت في محلها، خروجنا، حتى أن كلمنسيا ايساورا كانت على قناعة باننا دلفنا الى عرين الاسد كقديسين ابرياء . وصلت محاولات جس امكانية لقاء الجنرال المعارض الى طريق مسدود، دوماً بهذا الرد : «اعد الاتصال غداً» هذا ما كانت عليه أحوالنا، عندما ابلغنا الفريق الايطالي بأن تصريح التصوير في قصر المونيدا اصبح جاهزاً، لليوم التالي في الحادية عشرة صباحاً .

ساورنا الاعتقاد بأن هناك مكيدة قاتلة وراء ذلك ، كان لدي الاستعداد للمجازفة رغماً عن المخاطر، كانت مسؤولية كبيرة ان أعطي

امري للفريق الايطالي بالدخول الى مكاتب الرئاسة، اظن ذلك ادخالهم في المصيدة كالفئران، بالنسبة لهم، فقد استعدوا للقيام بذلك وتحت مسؤوليتهم، وهم يعون جيداً مخاطر ذلك. لم يكن هناك مبرراً لبقاء الفريق الفرنسي في سانتياغو لفترة أطول، لهذا اجتمعت بهم على جناح السرعة، واشرت عليهم بأن يخرجوا من تشيلي في اول طائرة ومعهم كافة المواد المصورة آنذاك، ليرسلونها الى مدريد. رحلوا ذلك المساء. وفي نفس الساعة التي كان الفريق الايطالي تحت قيادتي يصور في مكتب الجنرال بينوشيت، قبل الذهاب الى مندوزا، سلمت فرناندو الرسالة الموجهة الى محكمة العدل العليا والتي كنت احملها في حقيبة يدي منذ عدة ايام دون ان اقرر ارسالها، وقلت له ان يسلمها في الحال وبشكل شخصي، وهذا ما فعله. واعطيته ايضاً ارقام الهواتف التي اعطتني اياها ايلينا كي نتصل بها في الاحوال الطارئة الخطرة.

تركني في تمام الساعة الحادية عشرة اربعاً في زاوية بروفيدنثا، حيث انضممت الى الفريق الايطالي، لنشكل فريقاً متكاملأً، وتابعنا معاً طريقنا الى قصر المونيدا هذه المرة تركت جانباً شخصية الناشر الاوروغوائي، وعدت لارتدي سراويل الكابوي وسترة فرو مبطنة بجلد الارنب من الداخل.

كنت قد قررت في آخر ساعة المشاركة معهم، حيث كانت غراسيا الصحفية واوغو المصور، وغيدو مهندس الصوت، فتشوههم بشكل دقيق. أما مساعدوهم، فبالكاد طلبوا منهم تحديد هوياتهم، رغمًا عن ان اسماءهم كانت موجودة ايضاً في التصريح، هذا اسهم في إيجاد حل لوضعيتي: حيث دخلت كمساعد للاضاءة احمل معي كابلات وكشافات ضوئية. قمنا بالتصوير طوال يومين، بكل هدوء، بتكنيكه رفيعه، كان يقوم علينا كأدلة، ثلاثة ضباط، شبان ودمشوا الخلق، حتى

انهم كانوا احياناً يهبون لمساعدتنا . وانهينا كل ما يتعلق بتصوير العمارة وبحيث لا تثار الشكوك حول غرض الفيلم ، كانت غراسيا على جاهزية عالية ، ولديها من المعلومات حول تويسكا والفن المعماري الايطالي في تشيلي ما يكفيها للتمويه عن المهمة ، حتى الجنود كانوا ايضاً مؤهلين ، يحدثونا بكل حذر ، حول ما يمثله وتاريخ كل مكان في القصر ، وحول الطريقة التي اعيد فيها ترميمه ، وعلاقة ذلك مع المبنى الداخلي ، كانوا يناورون وباعجاز ، ليمتلصوا من الحديث عما يتعلق بـ ١١ ايلول ١٩٧٣ الحقيقة ان الترميم تم وبشكل كبير على نفس المخططات الاصلية ، سوى انهم في بعض الاماكن فتحوا ابواباً ، أو سدوا اخرى ، هدموا جدراناً ، وغيروا بلاط المكان ، والغوا مدخل (موراندي ٨٠) حيث كان الرؤساء يستقبلون فيها زائريهم الخاصين . التغييرات كانت عديدة ، بحيث انه لو دخل القصر احدهم وكان يعرفه ، فلن يستطيع ان يتوجه فيه الى حيث يريد من جديد . مر الضباط الذين الذين كانوا برفقتنا ويشرفون على عملنا ، في لحظة سيئة ، عندما طلبنا منهم ان يظهروا لنا «وثيقة الاستقلال الاصلية» والتي كانت خلال اعوام عدة محفوظة في صالة مجلس الوزراء وكنا على بينة بانها اتلفت خلال القصف . رفضوا ذلك قطعياً ، وانما وعدونا بان يحصلوا لنا لاحقاً على تصريح خاص لتصويرها ، دوماً كانوا يقولون لاحقاً ولاحقاً حتى فرغنا من التصوير .

بيد انهم لم يستطيعوا ان يسيروا لنا ، اين كانت خزانة الوثائق الخاصة بدون دايغو بورتاليس ، والاثار العديدة التي كان الرؤساء السابقون يتركونها طوال الاعوام ، لاجل عمل متحف تاريخي صغير ، لكن النيران اتت عليه ، ربما نالت كذلك تماثيل كل الرؤساء ، ابتداءً من أو هيجينز ، نفس المصير ، ربما ، وهذا طبيعي ان تكون الحكومة العسكرية قد قامت بازالتها من مكان عرضها حتى لا يشعرون بانهم

مضطربون لوضع تمثال سالفادور الليندي ايضاً. الانطباع الذي يؤخذ، بشكل عام، بعد التجوال في انحاء القصر، ان كل شيء قد تغير بشكل عميق، والهدف الوحيد من وراء ذلك هو طمس أي أثر للرئيس المغدور.

في اليوم التالي للتصوير في لامونيدا، كما هو الحال في الحادية عشرة صباحاً، فجأة شعرنا برجة في ذلك الجو، وشعرنا بضجة الاحذية العسكرية المتراكضة والاسلحة. تبدل مزاج الضابط الذي كان يرافقنا فجأة، وامرنا وبعنف ان نطفىء الاضواء وان نوقف التصوير. لم نعرف ما الذي كان يحدث، حتى بدا لنا الجنرال اوغوستو بينوشيت ماراً بزيه العسكري، متبجّراً، يسير الى حيث مكتبه ويرافقه مساعد عسكري وشخصان مدنيان. كان مشهداً لحظياً، لم يدع لنا مجالاً في شيء، وقريباً جداً منا دون ان يتلفت الينا، سمعناه بكل وضوح يقول اثناء مروره :-
بالنسبة للنساء، لا يجب عليك ان تصدقهن حتى لو قلن الحقيقة.

تسمر أوغو في مكانه، واصبعه متشنج على زناد تصوير الكاميرا كما لو شاهد مصيره يمر من امامه. قال لنا لاحقاً «لو ان احدهم فكر في قتله تلك اللحظة، لتيسر له ذلك» لا أحد منا شعر بحافز للاستمرار في التصوير ذلك اليوم، رغمًا عن انه بقيت امامنا ثلاث ساعات من العمل.

«مجنون في المطعم»

سريعاً ما ان انتهينا من المونيدا، حتى جمع الفريق الايطالي امتعته مع المواد المصورة وخرج من البلد دون أي تعويق. وهكذا تم تصوير اثنين وثلاثين الفا ومئتي متر من الافلام وكان خلاصتها النهائية، بعد ستة اشهر من التحميص والطبع في مدريد، ان اختصرت في اربع ساعات لاجل التلفزيون، وساعتين للسينما.

بقيت انا وفرانكي أربعة أيام أخرى. علماً ان البرنامج الاصلي قد انتهى، كنت على امل ان اتمكن من الاتصال مع الجنرال الكترك. خلال يومين، كنت اذهب كل ست ساعات الى نفس الكافتيريا. كما أشاروا علي بالهاتف. كنت اجلس. وانتظر دون استعجال، أقرأ مرة نسخة الخطوات المفقودة. ذلك الكتاب الذي يشجعي في التغلب على الخوف أثناء السفر جواً. أخيراً بدت وسيلة الاتصال المنتظرة، فتاة ملائكية في العشرين من عمرها، يبدو عليها الدلال، ترتدي زي مدارس الماسونية، وصلت في الموعد ما قبل الاخير، اسرت الى بكلمة السر للخطوة القادمة، المطعم المشهور شزهنري، في بورتاليس، حيث يتوجب علي ان أتواجد هناك هذا المساء، ابتداء من الساعة السادسة، ومعني نسخة من المركوريو ومجلة أخرى تتعلق بالتاريخ.

* المركوريو: اضخم صحيفة تشيلية تصدر منذ اكثر من قرن ونصف

وصلت متأخراً عن الموعد بقليل، حيث ان التاكسي لم يجد طريقاً بين المتظاهرين في الشوارع.

كانت قد اندلعت مظاهرات الشارع السلمية من جديد، كتعبير عن مقاومتها للدكتاتورية. اندلعت على جذور تضحية سياستيان اسيفيدو في كونسبسيون، بينما كانت عربات الشرطة تحاول تفريقهم بواسطة خراطيم الماء المضغوط. مكث اكثر من مائتي متظاهر مبتلين حتى العظام عاجزين عن الحراك، لينشدوا اشعاراً في الحب بينما لازلت مشدوهاً لذلك التعبير العظيم، جلست في البار على كرسي، واخذت أقرأ افتتاحية الماركوريو*، كما أشارت علي طالبة المدرسة، وانا انتظر احدهم ليقترّب مني ويسألني «أكثرأ تهم حضرتك صفحة الافتتاحية؟» كان علي أن أرد عليه بالايجاب. « لانها تحوي معلومات ذات نمط اقتصادي، تهمني كثيراً في مهنتي». عندها في الحال سأخرج من المطعم، وسأجد سيارة على الباب تنتظرنى. قرأت صفحات الافتتاحية ثلاث مرات كاملة، عندما ضربني أحدهم من الخلف بمعصمه على خاصرتي، قلت لنفسي « هاهو» نظرت. كان رجلاً في الثلاثين من عمره، عريض المنكبين. بطيء الحركة، ثم تابع خطاه نحو التواليت. فكرت في أن اشارته، كانت أن اتبعه حتى هناك، لكنني لم افعل ذلك، فالاشارات السرية كانت ناقصة حتى الآن، تابعت ارقب التواليت، حتى عاد من جديد ومن حيث مر سابقاً، وضربني ضربة اخرى كتلك الأولى. عندها استندرت وشاهدت وجهه. كان انفه أشبه بالزهرة، وشفته مزقتين، وحاجباه مشطوبين. قال لي

- مرحباً، كيف شعرت؟

قلت له: رائع، رائع جداً.

جلس على الكرسي المجاور، وتحدث معي بتودد. قال:

أتذكرني؟

أجبتة :- طبعاً يا رجل . وحتى لا ينقطع الخط بيننا تابعت الموجة : كيف لا .

هكذا تابعتنا بضع دقائق ، كنت انظر الى الجريدة وبطريقة ظاهرة لعينية ، حتى يتذكر الاشارات السرية . لكنه كان في وادٍ آخر . مكث جوارى ، يحرق بي :

قال :- حسناً ، لماذا لا تدعوني الى فنجان من القهوة؟

- على الرحب والسعة يا رجل .

طلبت من الجرسون قهوة لشخصين ، لكن هذا وضع واحداً على الطاولة .

قلت : طلبت اثنين ، واحد للسيد .

قال الجرسون : آه - نعم - بعد لحظة سنقدمه .

- ولكن لماذا لا تقدمه الان وفي هذه اللحظة؟

قال : نعم . . نعم سنقدمه

لكنه لم يقدمه ، مازاد في استغرابي ان ذلك لم يبدو يثر غرابه الرجل ، للرجل زاد تشوشي من الوضع مما اثار اعصابي ، وضع يده على كتفي وقال :

اعتقد ان حضرتك لا تتذكرني ها !!

في هذه اللحظة اتخذت قرارى بالخروج

قلت له : انظر ، حتى اكون صريحاً معك انني لا اذكرك

اخرج من محفظته قصاصة جريدة يبدو انها مرت على ايدي عديدة ،

مصفرة ، ووضعها امام عيني قال لي : انا هنا

عندها عرفته كان بطلاً للملاكمة قديماً ، مشهوراً جداً في المدينة

وذلك لفقدانه قدراته العقلية اكثر من اجماده الغابرة في الملاكمة . تهيأت

للرحيل قبل أن أصبح محطاً للأنظار طلبت الحساب قال : وقهوتي؟؟
قلت : تناوله في مكان آخر، سأعطيك نقوداً.
قال : وكيف تعطيني نقوداً يعتقد حضرتك بأن لأكرامة لي لانهم
ضربوني ضربة قاضية اطعموني المرء، لاتتعالى كثيراً علي
كان يصرخ لدرجة أن كل النظرات في المحل تحولت الينا عندها
امسكت بمعصمه الضخم، وابعدته بأيدي الخطاب هذه والتي لحسن
الحظ ورثتها عن ابي
قلت له : فليبق حضرتك هادئاً، اتفهمني؟ تفرست في عينيه -
ولا كلمة بعد الان، حالفني الحظ، انه صمت بنفس السرعة التي انفجر
بها، دفعت الحساب بسرعة وخرجت، كان الليل صقيعاً، وذهبت الى
الفندق في أول تكسي صادفته، في صالة الاستقبال وجدت رسالة
مستعجلة من فرانكي : اخذت حقائبك الى الـ ٧٢٧. لم اكن بحاجة
الى اكثر من ذلك. الـ ٧٢٧ كان الرقم السري الذي بيني وبين فرانكي
والذي كنا نعرف به منزل كلمنسيا ايساورا، كان حملة للحقائب الى
هناك والرحيل من الفندق باقصى سرعة يعني اشعاراً نهائياً بأن دائرة
الحصار حولي قد اغلقت نهائياً، اتجهت صوب بيتها، وانا انتقل من
تاكسي لآخر، واغير اتجاهاتي في كل مرة، يترأى لي ذلك، وجدت
كلمنسيا ايساورا في قمة المتعة، وهي تشاهد فيلمًا لهيتشكوك في
التلفزيون.

«إما ان تذهب او تغرق»

كانت الملاحظة التي تركها فرانكي لديها هامة. ففي هذه الليلة قدم رجلان يرتديان زياً مدنياً وتقصى عنها، اخبر البواب ذلك لفرانكي، دون أن يعطي ذلك اهمية، حيث انها بالنسبة له، امور روتينية وخاصة في ظل خطر التجول، الغى فرانكي الحجز في الفندق دون ان يبدي تخوفه، وطلب من البواب ان يطلب له تاكسي، كي يذهب للمطار الدولي، وصافحه بحرارة ودس بيده «بقشيش» لن ينساه. لم يدخل ذلك في خلد البواب، فقال: «استطيع ان ارتب لكم حجزاً في أي فندق وفي المكان الذي لا يصلكم اليه احد ابداً». تجاهل فرانكي ذلك، وتظاهر بعدم الاكتراث لذلك. كانت كلمنسيا ايساورا قد جهزت غرفة النوم، وصرفت الخادمة والسائق، حتى لا يسمع او يرى احدهم شيئاً. بينما كانت في انتظاري كانت قد جهزت عشاءً فاخراً مع الشموع، ونبیذاً من افخر الانواع، على انغام موسيقى براهام، موسيقارها المحبب، طالبت الجلسة على العشاء حتى وقت متأخر، وهي تتحدث عن مغامراتها، تشاركها يداها بانفعال كما لو كانت تطلب النجاة من الغرق في مستنقع، شعرت بأنها قضت حياتها سدىً في تربية اطفالها ليصبحوا من الذوات وأخيراً لتنتهي وهي تنسج جوارب صوفية، وهي تشاهد برامج التلفزيون، جاء ذلك متأخراً في الثانية والسبعين من عمرها، اذ ان قناعتها تبدلت، وترسخت تجاه الايمان بالنضال المسلح، تتمنى ان تحس بنشوة العمل البطولي.

قالت: افضل أن يمزقني الرصاص في اشتباك مع العسكر في الشوارع على أن أموت في سرير وخصرتاي مزهقتان .
وصل فرانكي صباح اليوم التالي، وقد استأجر سيارة أخرى جديدة، كان يحمل رسالة هامة، وصلتني من ثلاث طرق مختلفة «إذا لم تذهب، فستغرق» لامناص امامي من الاختفاء عن مسرح العمل، او الاستمرار، كان خياراً صعباً، كان يحمل فرانكي نفس وجهة النظر، وكان قد احضر بطاقتي سفر بالطائرة، التي تقلع هذا المساء الى مونتيفيديو، في الليلة السابقة انتهت فصل العمل النهائي، فقد اوقفت اول فريف تشيلي عن العمل واعطيته تعليمات بان يوقف عمل الفرق الأخرى، وسلمت الى رسول من المقاومة، آخر ثلاث علب افلام مصورة، حتى يخرجونها من البلاد في اقرب فرصة ممكنة، انجزوا ذلك بشكل جيد، بحيث ما إن وصلنا الى مدريد، حتى اتتنا الى البيت تحملها راهبة شابة تثير الاعجاب، تطلق على نفسها اسم سانتا تيريزادي خيسوس» أبت البقاء لتناول الطعام، حيث كانت امامها ثلاث مهام سرية أخرى، قبل أن تقفل راجعة الى تشيلي نفس تلك الليلة .

منذ فترة قليلة، اكتشفت بمحض الصدفة، بانها نفس الراهبة التي ساعدتني في الاتصال في كنيسة سان فرانسيسكو في سانتياغو. انا كنت من تقاعس عن الذهاب عندما كان هناك احتمال عندها لمقابلة الجنرال الكترك ومن ثم عاودت الاتصال والذي عاد لينقطع في المطعم، لكن وبينما كنا نتناول الفطور في بيت كلمنسيا ايساورا، قمت بالاتصال مجدداً، طلب مني نفس الصوت النسائي ان اتصل بها مرة أخرى في وقت لاحق بعد ساعتين من أجل أن تعطيني رداً قاطعاً. إذاً أولاً عندها قررت بأنه اذا كان بإمكانني الاتصال به قبل اقلاع الطائرة

بدقيقة فسوف ابقى في سانتياغو دون أن أعير اهتماماً لما سيحدث معي .
اما اذا كان الرد بالنفي ، عندها سأتوجه الى مونتيفيديو . المقابلة كانت
بالنسبة لي موضوع عظيم وآلني في روحي لو انني كرسيت نفسي لها بدلاً
مما عملته في الستة اسابيع بكل حسناتها وسيئاتها في تشيلي .

كانت النتيجة نفسها في المكالمات التالية ، كان عليّ ان اكرر
الاتصال مرة أخرى خلال ساعتين ، كان امامي الاحتمال ان قبل ان تغلق
الطائرة . نهضت كلمنسيا ايساورا لتعطيني مسدساً كان لزوجها .

دوماً كان تحت الوسادة ، لاجل ارباب اللصوص ، تمكنا من
اقتناعها بان ذلك لم يكن تصرفاً عقلانياً . ودعنا والدموع تغسل وجهها ،
لا اعتقد ان ذلك كان بسبب الرحيل ، وانما لانها ستعيش دون مغامرات
جديدة . كم كنت سعيداً وانا اترك هناك شخصي الآخر . وضعت
القضايا الشخصية الضرورية في حقيبة يدي ، وتركت حقيبة السفر عند
كلمنسيا ايساورا مع البدلات الانكليزية ، وقمصان الحرير الشمينة
المحاك عليها اوائل احرف الاسم ، والربطات الايطالية المزينة باليد وكل
ما يتعلق برجل الصالات ذلك ، اكثر رجل مقتة في حياتي ، ما احتفظت
به له كان ماكنت احملة دائماً ، ونسيته متعمداً بعد ثلاثة ايام في فندق في
ريودي جانيرو . قضينا الساعتين التاليتين نشترى هدايا تشيلية لابنائي
واصدقائي في المنفى . اتصلت بالهاتف من كافيتريا قريبة على ساحة دي
لاس آرماس للمرة الثالثة ، وكان نفس الرد : عد للاتصال خلال
ساعتين ، لم تعد ترد عليّ تلك المرأة ، وانما رد رجل اعطاني نفس الاشارة
السرية المتفق عليها وحذرنى بأنه اذا لم التزم وانضبط بالاتصال في المرة
القادمة فاني لن اعثر على رد قبل اسبوعين . وهكذا ذهبنا الى المطار ،
حتى نتصل من هناك للمرة الأخيرة .

كانت المواصلات مقطوعة بسبب اشغال وحفريات في اماكن

مختلفة، كانت الاشارات التوضيحية مشوشة وغامضة، حيث صادفنا عدة تحويلات واحياناً طرقاً مسدودة. كنت انا وفرانكي نعرف بشكل جيد الطريق القديم لمطار لوس ثيروس ولكننا لانعرف طريق بوداهويل ولا اعرف كيف وجدنا انفسنا ضائعين في حي لمجمعات صناعية قمنا بعدة دورات، نبحث فيها عن مخرج ايا كان اتجابه لم ننتبه الى اننا كنا نسير في الاتجاه المخالف، حتى واجهتنا في الطريق حافلة للشرطة. نزلت من السيارة واعترضت سيارتهم. فرانكي من جهته، فقد تفنن بالحديث معهم دون ان يعطيهم مجالاً للشك في اقاويله، قص عليهم حكاية مستعجلة وخرافية حول عقد قدمنا لابرامه مع وزير المواصلات بحيث ننشئ شبكة للتحكم بالمرور في البلاد عبر الاقمار الصناعية، ووضعهم بصورة التبعات المساوية لفشل البرنامج اذا مااستطعنا اللحاق وخلال نصف ساعة، الطائرة المتجهة الى مونتيفيديو، نهاية المطاف تلهف الكل لايجاد مخرج يقودنا الى اخذ خط الاوستراد المتجه الى المطار، حيث قفز الشرطيان الى حافلتهم، و اشاروا علينا بأن نتبعهم.

«فر الاثنان عند البحث عن الفاعل»

وصلنا المطار وقد اجتزنا الطريق بشكل مخالف، خلف اشارات الخطر، والاضواء المتوهجة المنبعثة من سيارة الشرطة، والمنطلقة بسرعة تتجاوز المائة كيلومتر في الساعة ركض فرانكي نحو كاونتر هرتز. لتسليم السيارة المستأجرة، وركضت نحو الهاتف اتصلت بنفس الرقم للمرة الرابعة في ذلك اليوم، كان الخط مشغولاً، أعدت الاتصال مرتين، في الثالثة اجابني المرأة، حيث كنت قد جاوزت الوقت المحدد للاتصال، تلك المرأة لم تحدد الاشارات السرية المتفق عليها، اغلقت السماعه وهي منزعجة، كررت الاتصال في الحال، عندها اجابني نفس صوت الرجل في المرات السابقة، وكان في هذه المرة دافى وهادىء، ولكن بدون أمل. وحيث حذرني، بان ذلك لن يكون قبل مرور اسبوعين، اغلقت السماعه وقد طار لبي من الغضب، بقيت امامنا نصف ساعة وتقلع الطائرة.

كنت قد اتفقت مع فرانكي على ان اجتاز حواجز الجوازات، بينما ينهي فرانكي تجهيز حساب هرتز، حتى يتمكن وفي حالة اعتقالي ان يخطر محكمة العدل العليا. لكنني عدت لانتظر ه عند مدخل ختم الجوازات، تأخر اكثر من اللازم، وبينما كان الوقت يمضي بسرعة تنبهت الى حقيقة الاعمال وحقيقتي السفر وايضاً الى كيسي الهدايا.

صدر من خلال مكبرات الصوت، آخر نداء، تلتها امرأة في حالة عصبية اكثر من حالتي، للمسافرين في رحلة مونتيفيديو.

اهتزت اوصالي من الرعب، ناولت حمالاً حقيبة فرانكي وورقة نقد كبيرة وقلت له : خذ هذه الحقيبة الى حيث كاونتر هرتز، وقل للسيد الذي يدفع هناك بأنني سألتحق بالطائرة، اذا لم يأت في الحال .
قال لي الحمال : من الاسهل ان يقلع حضرتك في الحال عندها توجهت الى احدى المضيفات التي تعمل في شركة الخطوط الجوية، والتي كانت تنظم دخول المسافرين، قلت لها لو سمحت، ايمكنك ان تنتظري دقيقتين، كي افتش اثناءها عن صديقي الذي يدفع حساب السيارة .

قالت هي : بقيت خمس عشرة دقيقة وتقلع الطائرة . ركضت الى حيث كاونتر هرتز، دون ان اهتم كيف قمت بذلك حيث ان النكد، جعلني افقد رباطة جأش شخصي الآخر، وعدت لاصبح سينمائياً منفعلاً والذي كنته دائماً . كل التحضيرات وساعات التهيئة لي في الاستوديو حيث تعلمت الدقة في التصرف، ذهبت الى الشيطان في دقيقتين، وجدت فرانكي هادئاً جداً، يتجادل مع موظف هرتز المناوب، حول مشكلة استبدال الفلوس قلت له : ياللهول، ادفع له بأية طريقة كانت، سأنتظرك في الطائرة فقد بقيت امامنا خمس دقائق عملت كل ما في وسعي لاجل ان اهدى نفسي وتواجهت مع حاجز الهجرة . فحص الموظف الجواز ونظر نظرة ثاقبة في عيني، بادلته نفس النظرة، ثم نظر الى الصورة وعاد ليرمقني، وانا اواصل النظر اليه، سألني : الى مونيتفيديو . قلت : الى حيث مأدبة طعام امي .

نظر الى الساعة الالكترونية في الجدار، وقال «لقد اقلعت رحلة مونيتفيديو، اصريت على انها لم تقلع، حاول ان يثبت ذلك بأن سأل المضيفة الارضية لشركة - لان LAN تشيلي والتي كانت تنتظرنا حتى نغلق باب السفر، بقيت دقيقتان ختم المفتش الجواز واعاده لي باسمًا، رحلة سعيدة .

ما ان تجاوزت الحاجز، حتى سمعت صوت نداء عبر مكبرات الصوت يناديني باسمي الزائف وباعلى صوت. ظننت انها النهاية، ثم تذكرت انه يحدث مع الكثيرين، عندما فكرت في ذلك، شعرت باحساس غريب وكأن حملاً قد سقط عن ظهري، لكن فرانكي كان من يناديني. حيث حملت تذكرة سفره بين اوراقى. كان علي ان اعود راكضاً مرة اخرى الى بوابة الخروج، وان اطلب من المفتش الذي ختم جوازي إذناً للعودة واجتياز الحواجز لاحضر معي فرانكي. كنا آخر اثنين صعدا الطائرة قمنا بذلك بسرعة، لم انتبه الى انني كررت نفس الخطوات التي كنت قد قمت بها قبل اثني عشر عاماً، عندما كان علي ان اتوجه بالطائرة الى المكسيك. احتللنا آخر مقعدين شاغرين. عندها احسست بكل تناقضات الرحلة، شعرت بالاسى وبالحنق، وشعرت بمرارة اقتلاع الانسان من وطنه، ولكنني شعرت بانسراح في صدري لان كلّ للذين شاركوني المغامرة، خرجوا منها معافين ودون اي ضرر. اذيع اعلان عبر سماعات الطائرات، لم اتوقعه، اعادني الى ارض الواقع: لو سمحتم ليظهر كل مسافر تذكره سفره، هناك تفتيش دخل الطائرة، مفتشان بلباي مدني، يمكن ان يكونا من نفس رجال امن المطار. حلقت في الخيال طويلاً، وانا اعرف بانه ليس بغريب ان يطلبوا قصاصة الرحيل في آخر ساعة، لاجل التأكد من بعض الفحوصات، على الطائرة. لكن هنا اول مرة تطلب التذكرة.

هذا يدع مجالاً للتفكير في أي شيء فتشت متعكراً عن ملجأ في العيون الخضراء الملائكية للمضيقة التي كانت توزع قطع الحلوى.

قلت: هذا التصرف ليس طبيعياً على الاطلاق.

قالت لي: آه ياسيد، ماذا تريد ان اقول لك، ان هذا ليس بأيدينا. سألها فرانكي مازحاً، كما هو دائماً في لحظات المحن، اذا ما كان

الظلام قد خيم في مونتيفيديو، قالت له بنفس النفحة، بانها ستستفسر على ذلك، زوجها مساعد القبطان. من جهتي، لم اعد احتمل اكثر من دقيقة، وانا اواجه الحياة مختبئاً في داخل شخصي الآخر. شعرت بشيء يدفعني في داخلي، يستنهضني ان اصرخ في وجه المفتش: (فالتذهبوا جميعاً الى الجحيم، أنا ميغيل ليتين مخرج سينمائي، ابن كريستينا وهرنان، لا انتم، ولا احد له الحق في ان يقف حجر عثرة امام حريقي في العيش في وطني باسمي وبوجهي».

لكن في ساعة الجد، اقتصر تصرفي على اظهار التذكرة بكل الهدوء الذي كنت قادراً على التظاهر به، وانا متشبث داخل القشرة الخاصة بالآخر. بالكاد نظر المفتش اليها، واعادها دون النظر في وجهي.

بعد ذلك بخمس دقائق، تنبّهت ونحن مقلعون في الطائرة فوق الثلج الوردي على مرتفعات الانديس في الغروب، بان الستة اسابيع التي تركتها خلفي لم تكن الاكثر بطولية في حياتي، كما اردت منها ان تكون، لكنها كانت الاكثر اهمية، الاكثر استحقاقاً للتقدير. نظرت الى الساعة: كانت الخامسة وعشر دقائق.

اثناء هذه الساعة، خرج بينوشيت من مكتبه مع رجالات بلاطه الخاصين، سار ببطء في الصالة الطويلة المقفلة، ونزل الدرج البديع والمفروش بالسجاد الى الطابق الاول، يجر جر خلفه الـ ٣٢٢٠٠ متر من ذيل الحمار الذي علقناه له: فكرت في ايلينا وبكل التقدير.

قدمت لنا المضيئة ذات العيون الزمردية كوكتيلاً ترحيبياً، دون ان نسألها قالت لنا: ظنوا ان احدهم تسلل بين الركاب في الطائرة.

رفعنا كأسينا في نخبها قلت: فر اثنان، بصحتك.



MIGUEL LITTIN

0
2
1
Bibliotheca Alexandrina



0500109